حرية النشر

وإشكالية الرقابة على الفكر

محمد عدنان سالم



بِسْمِ اللـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حرية النشر
وإشكالية الرقابة على الفكر

حرية النشر وإشكالية الرقابة على الفكر/ محمد
عدنان سالم- دمشق: دار الفكر، 2011- 176ص؛
17سم.
ISBN:978-9933-10-248-7
٢٥ سم.
1- 323.44 س ا ل ح 2- العنوان ٣-سالم



2011=1432

دار الفكر – دمشق – برامكة



٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/

e-mail:fikr@fikr.net

حرية النشر
وإشكالية الرقابة على الفكر

محمد عدنان سالم

الرقم الاصطلاحي: 2303.013

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-491-7

التصنيف الموضوعي: 002 (الكتاب ومشكلاته)

176 ص، 12 × 17 سم

الطبعة الأولى : 1432هـ= 2011م

يثير هذا الكتاب نقاطاً عديدة وهامة وتاريخية حول موضوع الرقابة، وحرية النشر، ومدى المسؤولية في تلك الحرية بين المؤلف والناشر والسلطة.. ويتساءل عن مكمن الرقابة الحقيقية.

محمد عدنان سالم

حرية النشر
وإشكالية الرقابة على الفكر



بِسْمِ اللـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ اقْرَأْ كِتابَكَ
كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14) }

[الإسراء17/14]

* * *

صفحة بيضاء
رقم 6

المحتوى

صفحة بيضاء
رقم 8

تقديم

د. نزار أباظة

لعل صدور قانون الرقابة على المطبوعات في الدولة العثمانية كان أعقب انتشار الجرائد مباشرة منذ أواخر القرن الثامن عشر؛ إذ وَجَد فيها المسؤولون آنذاك ما يؤرقهم من تلك الأقلام التي كانت تثير عليهم الرأي العام، وتنبه على العُوار، وتسلط الأضواء على الزوايا الميتة، لتستخرج المخبوء المزعج، فلا يَدَعون السلطة تنام بسلام.. وكم من جريدة أُوقفت وألغي ترخيصها.. أو صودرت أعداد طبعة منها، وكم من صحيفة تكرر تنبيهها ومساءلتها.

وفيما بعد انتقلت الرقابة إلى الكتب، وهذه مشكلتها أقلُّ شأناً؛ لأنّ مع الرقيب فسحةً غير مرتبطة بزمن معين كالجرائد المحددة التاريخ في صدورها. وهنا ضرب آخر

من الهمّ، فالرقيب غير مستعجل، لا يُلزمه أحد بزمن، ولذا يقرأ بعين الريبة، ويخاف إن صدر الكتاب وفيه هفوةٌ أن يعرّض نفسه لعقوبة رئيسه، فإذا به يتسقط ما يظنه يزعج السلطة، فيضع عليه الإشارات الحمراءَ والصفراء. ثم يستريح عندما يضع كلمة المنع.. أو يأمر بإعمال المقصّ على أجزاء من النص.. ومن هنا يُحكَمُ على الكتاب أن يوضع في الحجز الاحتياطي (الكرنتينا) حتى يطمئن المحتجزون إلى عافيته من الأوبئة والأمراض المعدية السارية، فيُسمحُ له بالخروج إلى الناس والاختلاط بهم.

ولكن بعض الجراثيم تبقى في الحضانة أكثر من مدة (الكرنتينا)، فإذا بها تظهر بعدئذ والكتاب مطبوع منتشر في الناس، وعندئذ يجب سحبه من الأسواق، ومحاصرته من جديد.

لكن مشكلة التأخر عند الرقيب تكمن في أنّ بعض الكتب تعالج موضوعاً راهناً، فإذا تأخر صدورها فاتت

الفائدة منها، وعجلةُ الناشر أو المؤلف لا تفيدهما.. لأن الرقيب غير مستعجل.

فمن هو الرقيب؟ وما الثقافة التي يتحلّى بها؟ وما الأسس التي يرتكز عليها في أحكامه؟

لا يجرؤ الناشرون أن يقدموا كتاباً فيه مساس بسياسة الدولة وهيبتها.

ولا يجرؤون أن ينشروا بحثاً فيه اجتراء على المقدسات.

ولا يجرؤون أن يصدروا نصّاً تشيع فيه بذاءة العبارات.

الناشرون يدركون ذلك كله بلا ريب.. فأين تكمن المشكلة إذن؟

هذا الكتاب يعالج موضوع الرقابة، ويصف حالات تتعلق بحرية النشر ومدى فاعليتها وحدودها والنتائج المترتبة عليها. وهو مقالات كتبت على مدى خمسة عشر عاماً (1995-2010م)، تدور - كما يشي بذلك عنوان الكتاب - حول قيود الرقابة ، كتبها ناشر له تجربته

الطويلة في النشر تعود إلى أواسط خمسينيات القرن الماضي، واكب فيها أحداثاً جساماً في القطر وخارجه، وتعامل مع ناشرين عرب وغير عرب، ليقدم وجهات نظر مهمة في موضوع الرقابة على الفكر.

وهذه المقالات تحمل أفكاراً جريئة في بابتها، متنوعة في أساليب عرضها، وربما يكون فيها بعض تكرار يشفع له أنه يحمل معه حين يأتي تأكيداً تارةً، أو تعميقاً على الفكرة تارة أخرى.

وبعدما انتظمت المقالات في هذا الكتاب مرتبة بحسب تاريخ كتابتها اختتمها المؤلف بمقالة "القرآن وحرية التعبير"، ليؤكد أن حرية التعبير حق طبيعي من حقوق الإنسان تقرره الشرائع السماوية، لم يعد للأنظمة مناص من احترامه في عصر الانفجار المعرفي وثورة الاتصالات.

من حرية الفكر إلى حرية النشر[1]

1- كفاح الإنسان من أجل حرية التعبير

منذ هبط الإنسان إلى الأرض لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، حتى ارتيادِه الفضاء يرنو ببصره إلى السماء؛ ما زال يكافح من أجل حرية التعبير عن آرائه.

ظلت أفكاره ردحاً من الزمن حبيسة ذاكرته، يضن بها وبخبراته أن تموت بموته، فحاول نقلها إلى أبنائه وبني جنسه بالإشارة أولاً، فكانت الإشارة أول وسائله للتعبير. وعندما عجزت الإشارة عن نقل معلوماته التي أخذت تتضاعف، وشعر أن ذاكرته ضاقت عن استيعابها، وقد باتت عرضة للنسيان، أخذ يبحث لها عن ذواكر خارجية

[1] ألقيت في مؤتمر الناشرين العرب 2009/08/30 .

يضيفها إلى ذاكرته، لتوثيقها من جهة، ولنقلها إلى الأجيال الآتية من جهة أخرى، فاستخدم الصوت ليصل به إلى اللغة المحكية، واستخدم النقش ليصل به إلى الحرف والكلمة المكتوبة؛ فكان الكتاب المخطوط. ولما عجزت يده عن استيعاب معلوماته المتنامية، اخترع الطباعة التي حوّلت الوراقين إلى ناشرين.

وما زال الإنسان كلما ضاقت أوعيته لحفظ المعلومات عن الاستيعاب، يبحث لها عن أوعية جديدة. وها هو ذا في عصر المعرفة والتفجر المعلوماتي، ينتقل بالكلمة تدريجاً إلى أوعيتها الإلكترونية الجديدة.

لم يعرف التعبير؛ محكياً كان أو مكتوباً أو مصوراً، أي قيود على حريته، قبل أن تنتظم المجتمعات الإنسانية تحت سلطة ما، من القبيلة إلى الدولة.

وبهذه القيود أصبحت الكلمة مسؤولة مسؤولية مزدوجة، تخضع فيها لرقابة المجتمع وأعرافه تارة، ولرقابة الدولة وقوانينها تارة أخرى.

وقديماً قالوا: ما كل ما يُعلم يقال. وقال رسول الله ﷺ: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر". [رواه أبو داود وابن ماجه].

* أنبياء الله كانوا أول المكافحين من أجل حرية الرأي وحرية التعبير، ومارسوا تبليغ أفكارهم والصدع بها واجباً يؤدونه، وليس مجرد حق يستجدونه، وتحملوا في سبيل ذلك أشد صنوف الأذى والتعذيب والطرد والتهجير {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) } [إبراهيم: 9/14] .

المجتمعات الراكدة هي التي تصدت للأنبياء؛ كراهية للتغيير، وتشبثاً بالموروث من فكر الآباء؛ تستميت في الدفاع عنه، فيصبر الأنبياء ويحتملون الإيذاء، ويكشف نوح عن صدره صارخاً في قومه: {ياقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ

عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ} [يونس: 71/10] .

{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: 110/12] .. تلك صور من كفاح الأنبياء دفاعاً عن حرية التعبير في مواجهة مجتمعات الركود والتخلف.

ولم يكن الأنبياء أقل تصدياً لأنظمة الاستبداد السياسي، وتعرضاً لبطشها: تكذيباً ومطاردة ونفياً وتعذيباً.

ويرسم القرآن العظيم لنا صورة معبرة لمصادرة الرأي السياسي، هي صورة موسى في صراعه مع فرعون {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى(24) } [النازعات: 79/16-24] .

ويحاول فرعون أن يضفي على استبداده صفة البحث العلمي، فينادي {يَاأَيُّهَا الْمَلأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: 38/28] .

ومن مقام الربوبية الزائفة يعلن فرعون استئثاره بالرأي وتفرده بالتفكير نيابة عنهم {مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: 29/40] .

وفي خطوة أشبه ما تكون بمسرحيات الاستفتاء على الزعامة؛ ينادي في قومه {يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ} [الزخرف: 51/43] ، {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [الزخرف: 54/43] ..

إنها دعوة قرآنية صارخة للمجتمعات كي تدافع عن حقها في التعبير عن رأيها، ولا تستسلم، نجد أروع تطبيقاتها في حديث عبادة بن الصامت: "بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره.. وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم" [متفق عليه].

كما نجد الارتقاء بها من مرتبة الحق الذي يمكن للإنسان أن يتنازل عنه، إلى مرتبة الواجب الذي عليه أن يؤديه، ليكون له رأيه الخاص، وشخصيته المستقلة، وذلك في حديث الرسول ﷺ: "لا يكن أحدكم إمعة يقول: أنا مع الناس؛ إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطِّنوا أنفسكم؛ إذا أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم".

والتاريخ الإنساني بعدُ، مليء بصور من كفاح العلماء للتعبير عن آرائهم وكشوفاتهم العلمية، في مواجهة محاكم التفتيش التي نصبت لهم، لإثنائهم عن إعلانها، وما خبر غاليليه- ورجوعه عن إعلانه دوران الأرض حول الشمس، إنقاذاً لرقبته من المقصلة- بخافٍ على أحد من أهل العلم.

لكن ذلك لم يمنعه عند عودته إلى بيته من أن يضرب الأرض برجله وهو يصيح بها: "والله إنك لتدورين".

2- من حرية الفكر إلى حرية النشر

يخلط كثيرون بين حرية الفكر والاعتقاد من جهة، وحرية الرأي والتعبير عنه من جهة أخرى، ذلك أن حرية الفكر وحرية الاعتقاد؛ حقان طبيعيّان يمارسهما الإنسان في داخله، بما وهبه الله تعالى من عقل، لا حاجة لتوكيدهما في نصوص دستورية أو قانونية، إذ لا يملك أحد - مهما أوتي من جبروت أو استخدم من وسائل غسيل الدماغ- أن يعطلهما أو يقيدهما؛ فالفكرة المستقرة في ضمير الإنسان، والعقيدة الراسخة في وجدانه، قد تستتران وتظلان في حالة كمون نتيجة الإكراه، لكنهما ما تلبثان أن تخرجا منها، ولو بعد حين، كالذي حدث إثر انهيار الاتحاد السوفييتي، ليؤكد صدق القانون الإلهي {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: 256/2] .

أما عندما تتحول الفكرة والعقيدة إلى رأي يتجاوز ضمير الإنسان، فيعبر عنه للآخرين وينشره ليشركهم معه في تبنيه، فإنه سيحتاج إلى دساتير تؤكده، وقوانين تحميه، وضمانات تكفله؛ بوصفه حقاً من حقوق

الإنسان كثيراً ما يتعرض لمصادرته والافتئات عليـه، ومـا زال الإنسان على مر العصور يكافح لنيلـه، فيـنجح تـارة ويخفق أخرى، في صراع أبدي.

3- حرية الرأي والتعبير في المواثيق الدولية

لقد أصبحت حرية الرأي والتعبير عنه من المبـادئ الأساسـية المسـلَّم بهـا، وغـير القابلـة للنقـاش فيهـا، أو الانتقاص منها، في معظم المواثيق الدولية.

فـالإعلان العـالمي لحقـوق الإنسـان الصـادر عـام 1948، نص في مادته رقم 19 على أن " لكل شخص حـق التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريتـه في اعتنـاق الآراء دون مضـايقة ، وفي الـتماس الأنبـاء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة، ودونمـا اعتبار للحدود".

ويأتي الميثاق الدولي للحقوق المدنيـة والسياسـية لعام 1966 ليضيف إلى نص المادة 19 السابق توضيحاً لأشكال التعبير: "سواء أكانـت عـلى شـكل مكتـوب أو

مطبوع أو في قالب فني أو بأية وسيلة يختارها"، ثم ليفتح الباب أمام جواز إخضاع حرية التعبير لبعض القيود شريطة أن تكون محددة بنص القانون، وأن تكون ضرورية:

أ- لاحترام حقوق الآخرين وسمعتهم.

ب- لحماية الأمن القومي، أو النظام العام، أو الصحة العامة، أو الآداب العامة.

وعبر هذا الباب، أخذت الأنظمة تتوسع في تفسير القيود أو تضيق، أو تترك الباب مواربًا بحسب طبيعتها.

وتتوالى الاتفاقيات والمواثيق الدولية مؤكدة كفالة هذا الحق، كالاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان، والميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان، وإعلان اليونيسكو للإعلام سنة 1978م، والمبادئ الخاصة بالنظام الإعلامي العالمي الجديد سنة 1980م، والإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان 1990م، والاتفاق العربي لحقوق الإنسان 2000.

4- حرية الرأي والتعبير في الدساتير العربية

كل الدساتير العربية نصت على حق مواطنيها في حرية الرأي والتعبير. ولئن اختلفت فيما بينها بالطرائق التي صيغت بها كفالة هذا الحق، فقد اتفقت كلها على تقييده بشروط أوكلت تحديدها إلى القانون، الذي تولى بدوره صوغها بقوالب عامة وحمّالة أوجه؛ تفرغ النصوص الدستورية من مضامينها، ليسهل على السلطة الإدارية قضمها في ظل تغييب رقابة السلطة القضائية.

إن تقييد الحرية- أي حرية- ليس عيباً بحد ذاته، فلا توجد حرية مطلقة، ولو أطلقت الحرية لكل إنسان في مجتمعٍ ما لتعارضت حريات أفراده وتصادمت، وذلك ما عبر عنه الرسول ﷺ في حديث السفينة، التي همَّ أحد ركابها في الطابق السفليِّ أن يثقب فيها ثقباً يستقي منه الماء؛ بذريعة أن الثقب سيكون في سهمه، ومن حقه أن يصنع فيه ما يشاء.

قال رسول اللـه ﷺ: "فإن أخذوا على يده نجا ونجوا جميعاً، وإن تركوه هلك وهلكوا جميعاً".

وما من حق إلا ويستدعي وجود واجب في مقابلته، وما من حرية إلا وتستدعي مسؤولية على قدرها.

إنما القضية تكمن في المقاصد، فإن كان القصد من الاستثناء والتقييد تلافي الأضرار التي قد تنجم عن الحرية المطلقة، ضاقت ثقوب الغربال وأُحكمت حتى ليستبقي فيه كل مفيد نافع، وينفي عنه كل خبيث وضار. وإن كان القصد من الاستثناء التخلص من حرية التعبير وما تجره من أعباء الإصغاء إلى الآراء المعارضة ومناقشتها، اتسعت ثقوب الغربال حتى لا يبقى منه إلا الإطار والشكل، ويغيب المضمون. وهو - لعمري- ما اختارته أنظمة الدول العربية أحادية الاتجاه في معظمها، حين نصت دساتيرها على ضمان حرية التعبير في حدود القانون، أو بالشروط التي يحددها القانون، فتركت للقانون تنظيم هذه الحرية، من دون أن تقيده بأي

ضوابط محددة، لتعطي السلطات هامشاً في التحكم بهذه الحرية، فتعديل القوانين أيسر عليها من تعديل الدساتير، ويمكنها أن تحول حرية التعبير إلى شعار أجوف ترفعه الدساتير وتغيبه القوانين.

وينفرد الدستور القطري من بين الدساتير العربية بغياب أي ذكر لحرية الرأي والتعبير كمبدأ عام، مكتفياً في مادته 13 بالنص على أن " حرية النشر والصحافة مكفولة وفقاً للقانون". كما ينفرد الدستور اللبناني بالنص على حرية الطباعة، و ينفرد الدستور السوري بمنح المواطن حق الإعراب عن رأيه بحرية وعلنية؛ بما يضمن سلامة البناء الوطني والقومي ويدعم النظام الاشتراكي.

وينص القانون الأساسي السعودي في مادته 36 على أن تلتزم وسائل الإعلام والنشر وجميع وسائل التعبير، بالكلمة الطيبة، وبأنظمة الدولة، وتسهم في تثقيف الأمة ودعم وحدتها، ويحظر ما يؤدي إلى الفتنة أو الانقسام أو

يمس بأمن الدولة، وعلاقاتها العامـة، أو يسيء إلى كرامـة الإنسان وحقوقه، وتبين الأنظمة كيفية ذلك.

5- حرية الرأي وأزمة صناعة النشر

تُعد صناعة النشر أحد أهم المعايير التي يقاس بهـا المستوى الحضاري لشعب مـن الشـعوب، فمـن فحـص الإنتاج الفكري، ومعدلات النهم القـرائي لأي مجتمـع في حقبـة مـا مـن أحقـاب تطـوره؛ يمكـن تحديـد المرحلـة الحضارية التي يجتازها هذا المجتمع صـعوداً في معـارج التحضر أو انسحاباً من ميادينه.

وقد غدت دور النشر أحد أهم مصانع المعرفة، إلى جانب الجامعات ومراكـز الأبحـاث، في عصر المعلومـات وثـورة الاتصـالات؛ الـذي تتحـول الإنسـانية إليـه الآن بسرعة مذهلة.

فأمـا الإنتـاج الفكـري، فقـد تـولى تقريـر التنميـة البشريـة لعـام 2003، تزويـدنا بأرقامـه التـي تضـعنا في أسفل سلم الإنتاج الفكري العالمي.

وأما المعدل القرائي فقد وضعنا التقرير في المرتبة ذاتها، إذ يقرأ الكتابَ الواحد واحدٌ من كل ثمانين عربياً، بينما يقرأ كل إسرائيلي أربعين كتاباً في السنة، لتصبح المعادلة أن الإسرائيلي الواحد يقرأ ما يقرؤه 3200 عربي، وهو ما يفسر لنا السبب الأهم من أسباب تخلفنا وانهزامنا، كما يفسر لنا أسباب ضعف صناعة النشر في الوطن العربي، فهي تعمل على إنتاج سلعةٍ لا رواج لها ولا طلب عليها.

أما تقرير التنمية الثقافية لعام 2008 فإنه يشير إلى نوع من التراجع في مستويات استهلاك الصحف داخل الوطن العربي بين عامي 1996 و2003، فقد كان متوسط توزيع الصحف اليومية في عام 1996 (78) نسخة لكل ألف مواطن عربي، ثم انخفض إلى (50) نسخة فقط في عام 2003.

في حين بلغ متوسط عدد النسخ لكل ألف مواطن في كوريا الجنوبية (394) نسخة. علماً بأن سكانها يشكلون 16% من سكان الوطن العربي.

- على حين أنه في محور التلفزيون الفضائي ارتفع عدد القنوات الفضائية التي تبث باللغة العربية حتى منتصف 2008 إلى (482) قناة مفتوحة غير الباقات المشفرة، أي إن هذا الميدان يشهد نمواً سريعاً لدرجة فائقة.

-ويوضح التقرير أن المواقع الإعلامية على الشابكة (الإنترنت) تحظى بأعلى معدل استخدام بنسبة 28%، تليها مواقع الدردشة بنسبة 15%. ويُعَدُّ الدافع الأول لدخول المواطن العربي على الشابكة هو الترفيه والتواصل بنسبة 46%، ثم بدافع التماس المعلومات بنسبة 26%.

وكشف التقرير أن العدد الإجمالي لمنشورات الوطن العربي من الكتب خلال عام 2007 بلغ (27809) عناوين، أي بنسبة كتاب واحد لكل 11950 مواطناً، مقابل كتاب واحد لكل 491 مواطناً بريطانياً.

ويشير التقرير إلى أنه بينما يبلغ مجموع المؤلفات في

الأدب والـديانات 48% مـن إجـمالي الكتـب في السـنة نفسها، فإنـه لم يتجـاوز مـا نشر مـن العلـوم التطبيقيـة والنظريـة 12%،كـما بلـغ إجـمالي الكتـب المترجمـة في اللغات الأجنبية عام 2007 نحـو 1261 كتابـاً، أي 4.5% من إجمالي المنشور. ومن باب المقارنة أنتجـت بريطانيـا عام 2007 نحـو 118000 عنـوان جديـد، أي مـا يعـادل أكثر من أربعة أضعاف الإنتاج العربي.

يعزو الكثيرون أسـباب العـزوف القـرائي في الـوطن العربي إلى ارتفاع نسبة الأمية فيه، وإلى ضيق ذات اليـد، وذات الوقـت، وتعقـد سـبل الحيـاة، وانتشـار وسـائل الإعلام المسموعة والمرئية.

ويـذهب الـبعض إلى أبعـد مـن ذلـك فـيرى هجـر الكتاب والقراءة طبعاً متأصلاً فينا نفضل بموجبه الثرثـرة الكلامية على الكلمة المكتوبة الموثقة.

وأرى ذلـك كلـه أسـباباً سـطحية لا تلامـس جـوهر المشكلة، فضلاً عن مجافاتها للحقيقة وللواقع.

فلقد قرأنا- ونحن أميون- المخزون المعرفي الإنساني، نشتاره من كل حدب وصوب، ثم نعيـد إنتاجـه معالجاً ومضافاً إليه ومطبوعاً بقيمنا وثقافتنا ومنطلقاتنا لنبنـي به أسرع حضارة في التاريخ كانت ملء السمع والبصر.

تم ذلك على وقع نداء (اقرأ) ، ومناخ الحرية الذي وفرته لنا ثقافتنا الإنسانية المنفتحة على ثقافات العالم.

ولقد كنا نقرأ، قبل أن يكون عندنا تعلـيم إلزامـي، وثقافـة إلزاميـة.. كنـا يومهـا نحـترم الكتـاب والكلمـة والحرف إلى درجة القداسة؛ نضن بالكلمة أن تقـع عـلى الأرض، فإن هي وقعت رفعناها وقبّلناها ووضـعناها في حرزها.

وكـان للكلمـة عنـدنا معناهـا ومغزاهـا وفاعليتهـا كالقسم، لا يجرؤ أحد على الحنث به، فإن هو فعل فَقَدَ احترامه في المجتمع الذي كان يعد التزام الإنسان بكلامه من الرجولة.

وكنا- نحن الناشرين- أواسط القرن الماضي،

نستقبل قارئاً يبحث عن جديد، وكان ذلك يحثنا على إنتاج الجديد، الذي ما يلبث- بدوره- أن يصبح قديماً، لسرعة تلقفه، وانتشار خبره، تداولاً له بين القراء، ونقداً له في الصحافة وأندية الثقافة.

ثم آل الأمر بنا- أواخر القرن- إلى أن أصبحنا ننتج جديداً يبحث عن قارئ، ثم نجتر قديمنا الذي بات بمنزلة الجديد؛ يستويان معاً في مجتمع الركود ونضوب الإبداع.

ما الذي تغير، فعاجَلَ حركة النشر العربي في صباها وأعاقها عن النمو؟!

ما الذي أفرغ التعليم من مضمونه، وحرفه عن مقصده، ليخرج لنا أجيالاً من مستظهري المقررات المدرسية، بدلاً من بناء أجيال من الباحثين المتقنين لتحصيل المعلومات من المراجع والمصادر؟!

ما الذي أفقد الكلمة قوتها، وشلَّ فاعليتها، وفصمها عن معناها ومغزاها؟!

6- الكلمة تفقد فعاليتها حين تفقد حريتها

حرية الكلمة، حرية النشر، حرية التعبير، حرية التفكير.. الحرية بكل معانيها وأبعادها؛ جوهر المشكلة، ومكمن الداء.

تولد الكلمة حرة، لا تطيق القيود، ولا القماقم، ولا القوالب الجاهزة، فإن لم تستطع الإفلات من قيدها تموت. - والكلمة تعبير عن فكرة، والفكرة كائن حي يتكاثر بالتعدد وبالتنوع وبالتزاوج، أما الفكر الأحادي فهو عقيم لا ينجب. وبارقة الحقيقة لا تنقدح إلا باحتكاك الأفكار وتصادمها، مثل السحاب.. - والفكرة إبداع، والإبداع تجديد، والتجديد تجاوز للمألوف، وتجاوز المألوف مخالفة، والمخالفة تحدٍّ، والتحدي يستدعي الآخر، والآخر تعدد، والتعدد يثير التصادم، ومن التصادم ينبعث الرعد والبرق، صوتاً يخرق الصمت، ونوراً يضيء ظلام الطريق، ويبعث على الحركة، والحركة حياة، والحياة كتاب.

والفكرةُ إضافةٌ إلى فكر الآباء.. والجيل الذي لا يقدم

إضافة إلى فكر الآباء ويقول: {حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [المائدة: 104/5] جيل عاطل إمعة، لن يأبه به التاريخ، وسيتخطاه إلى جيل أكثر فعالية.. والآباء الناجحون هم الذين يوفرون لأبنائهم المناخ الملائم للإبداع، ولا يقفون عثرة في طريق تقدمهم.. تلك سنة الحياة التي نرى أروع صورة لها في مناجاة إبراهيم لأبيه: {يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) } [مريم: 43/19] .

وإنما تؤتى الأمم من قبل أفكارها، فلئن كان واقع كل أمة إنما هو حصاد ما تحمله من أفكار، وما تتشبث به من مفاهيم، فإن عليها أن ترفع وصايتها عن المجتمع، وعلى شبابها أن يبحثوا عن سبل تقدمهم في الممنوعات { إِنَّ اللــه لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ [من أوضار] حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ [من أفكار]} [الرعد11/13].

كل الأنبياء والمصلحين جاؤوا بالتغيير، وأُدرجت أفكارهم في قائمة الممنوعات، وصُكت الآذان عن

سماعها، فصبروا، وتذرعوا بالحجج والبينات، فكانوا أئمة التغيير.

7- المقـررات المدرسـية شـكل مـن أشـكال الحجـر والانتقاص من حرية النشر

مناهجنـا التعليميـة ربطـت طلابنـا بـالمقررات الدراسـية ومختصراتهـا، فقتلـت لـديهم روح البحـث وصرفتهم عن المطالعـة خـارج المنهـاج، وكرهـت إلـيهم القـراءة والكتـاب، حـين حصرت هـدفهما بالامتحـان والشهادة، تنتهي الحاجة إليهما وتبـدأ القطيعـة معهـما بالنجاح في الامتحان وتحصيل الشهادة.

إن مناهج التربية والتعليم؛ هي المسـؤولة عـن غـرس عـادة القـراءة لـدى الطالـب مـن أجـل بنـاء مجتمع قـارئ. وهـي القـادرة عـلى تكـوين القـارئ النهم، الذي يعد الكتاب حاجة أساسية لتنمية عقله وفكره، مثلما الرغيف حاجة أساسية لـنماء جسـده، بل هو يشعر بـأن معدتـه محـدودة؛ إذا اسـتقبلت

من الرغيف أكثر من حاجتها أصيب بالتخمة، أما عقله فغير محدود يلتهم كل ما يقدم له من زاد المعرفة، ويقول: هل من مزيد؟!

فإن هي أرادت أن تستخدم طاقتها في بناء الإنسان القارئ، أقبلت عليه منذ الصغر؛ توسع مداركه، وتفتح له آفاق المعرفة، وتغريه بها مستغلة ما فطر عليه من حب الاطلاع، والسعادة بتَعرُّفِ المجهول، فتطارحه الأسئلة وتدفعه للتساؤل، ثم تضع بين يديه المراجع والمصادر، وتتركه يواجه تعب الولوج إليها، ويعاني مشقة البحث فيها، وينتابه الإحباط تارة والأمل أخرى، حتى يظفر بما يريد، وتغمره السعادة بما حصل عليه بجهده وتعبه وسهره.. عند ذلك ستقوم بينه وبين الكتاب ألفة ما بعدها ألفة، وسيشعر أن حياته مدينة للكتاب، وأنه لا يستطيع أن يعيش من دون كتاب يصطحبه معه كل حين، يحيي به كل وقت انتظار فيزهق مللـه، ويخصه بساعات من وقته يخلو بها معه.

أما إذا أرادت أن تضرب به مثل السوء، وتذهب به خـارج دورة الحضـارة، فتصرفـه عـن عـادة القـراءة، وتبغضه بالكتاب، وتشغله بسفاسف الأمور، فإنها تعمد إلى ربطه بالمقررات، وصرفه عن المراجع، وقتل روح السـؤال والتسـاؤل لديـه، وإراحتـه مـن عنـاء التفكـير ومشقة البحث، فها هو ذا الكتاب المقرر بين يديـه، قـد احتوى علم الأولين والآخرين، وما عليه إلا أن يقرأه آناء الليل وأطراف النهار حتى يحفظ كل حرف فيه، ويصـبه في ورقة الامتحان صباً، فينال الشهادة، وتنقطع بها صلته بالكتاب، بل يصبح الكتاب أبغـض شيء إليـه، لأنـه كـان الضيف الثقيل المفروض عليه، وهـا قـد انتهـت حاجتـه إليه.. أفتراه يبحث عن نظيره ليعكر عليه صفو هدوئه؟

والمناهج عندما تمارس هذا الـدور، تلغـي كـل دور لمكتبة المنـزل أو المدرسـة، ولحصـة المطالعـة، ولواجـب المطالعة الحـرة، ولحلقـة البحـث، وتصـنع مـن الكتـاب أعدى عدو للإنسان.

ولقد كانت للمملكة العربية السعودية في ثمانينيات القرن الماضي؛ تجربة رائدة استطاعت من خلالها أن توجه حركة النشر في الوطن العربي، وتضبط إيقاعها، فقد طلبت من كل ناشر عربي أن يزودها بنسخة من جديده، تخضعها للتقويم، فإن هي فازت زودت بها مكتباتها المدرسية بكميات متفاوتة، تصل إلى أكثر من 15000 نسخة للكتب التي تلائم المرحلة الابتدائية، وأكثر من 5000 نسخة لمكتبات المرحلة الإعدادية، و 2800 نسخة لمكتبات المرحلة الثانوية، ولم تكن اختياراتها عشوائية ولا منغلقة، فقد اختارت على سبيل المثال:

الكثير من حلقات سلسلة ليديبرد للمكتبات الابتدائية، وكتاب شروط النهضة لمالك بن نبي لمكتبات مدارسها الثانوية، ثم عصفت بالمشروع أزمة عارضة، لم ير النور بعدها..

لم تنج الكلمة من سيف الرقابة المسلَط يوماً.. منذ أيام العرب الأولى في سوق عكاظ، حيث كان الشعراء

ينشدون أشعارهم، وكان النقاد لهم بالمرصاد يسلقونهم بألسنة حِداد، مروراً بالمتنبي كبير شعراء العصر الإسلامي الذي ألَّفوا في نقده وسرقاته ومشكل شعره كتباً. وانتهاءً بسفُّود الرافعي الذي شوى العقاد به على النار، وبرسالة الزيات التي كنا نتتبع عبرها المعارك الأدبية المحتدمة بين كبار الأدباء أواسط القرن الماضي؛ نتفاعل معها ونشارك فيها شجباً وتأييداً.. ثم خبا بعد ذلك كل شيء: هدأت المعارك الأدبية، وخفتت أصوات النقد، وسادت ثقافة البعد الواحد، واللون الواحد؛ لينشأ في ظلهما جيل الاسترخاء الفكري والعزوف القرائي والتواكل.

الرقابة كانت وما تزال حاضرة في كل زمان ومكان، ولكن شتان بين رقابة يديرها المجتمع في العلن وعلى رؤوس الأشهاد، ورقابة تتولاها السلطة في الخفاء داخل الدهاليز المغلقة، وإن بين الرقابتين لبوناً شاسعاً في الشكل والآليات من جهة، وفي المضمون والحصاد من جهة ثانية.

ومع أن رقابة المجتمع تنطلق من الحفاظ على قيمه وتقاليده وأعرافه، مما يعيق عملية التجديد وطرح أفكار جديدة تتجاوز المألوف؛ فإنَّ تجاوزها واختراقها مرهون بقدرة صاحبها على الحوار والإقناع.

أما رقابة السلطة فمرهونة بنوع هذه السلطة؛ ديمقراطية تستند في حكمها إلى الشعب وصناديق الاقتراع، فتقترب بذلك من رقابة المجتمع وتحقيق مصالحه وتطلعاته، أو فردية أحادية توجه رقابتها إلى حفظ النظام واستقراره؛ من الصعوبة بمكان تجاوزها، وهذا التقسيم بين ديمقراطي وفردي ليس حدياً، فقد يقترب أحدهما من الآخر، فيصوغ أنظمته الرقابية بحسب درجة اقترابه.

وعلى صاحب الكلمة أن يتلمس مدى قدرته على تحمل مسؤوليتها الاجتماعية والقانونية قبل أن يعبر عنها.

بـين رقابـة السـلطة ورقابـة المجتمـع، ثمـة فـروق جوهرية:

* ففي ظل رقابة المجتمع يتحمل صانعا الكلمة؛ المؤلف والناشر، مسؤوليتها على مختلـف الأصـعدة الثقافيـة والاجتماعيــة والسياســية، ويســتعدان لتلقــي ردود الأفعال المتباينة حولها وتلـك هـي - لعمـري- رقابـة الذات.

وفي ظــل رقابــة الســلطة، يرفــع صــانعا الكلمــة مسـؤوليتها عـن عـاتقهما، ويلقيـان بهـا عـلى عـاتق الرقيب، ويعفيان نفسيهما مـن تلقـي ردود الأفعـال، ومن تبعات القيل والقال، فتغيب رقابة الذات لتحل محلها ثقافة الإملاء.

* رقابة المجتمع لاحقة تسمح للكتاب أن يختزل الوقت، ويتابع التطورات والأحداث. - ورقابة السلطة سابقة، تضع الكتاب عـلى قائمـة الانتظـار التـي قـد تـذهب بألقه ومناسبته وجدواه عند صدوره.

* رقابـة المجتمـع تعدديـة: تتناولـه مـن وجهـات نظـر مختلفة، بين مبارك متفق ومعارض مختلـف؛ يحتـدم النقاش بيـنهما بقـدر مـا ينطـوي عليـه الكتـاب مـن مفاجآت، تخرج به عن الفكـر السـائد والمسـلَّمات. - ورقابة السلطة أحاديـة وصـائية، ذات بعـد واحـد لا يثير جدلاً، ولا يحرك ساكناً.

* رقابة المجتمع هي المنـاخ الملائـم لتعزيـز القـراءة، بمـا تشيعه من ترقب وتفاعل وتشارك وحـوار ونقـد بـين صانعي الكلمة ومتلقيها. - ورقابة السـلطة: وصـائية تفترض قصور القارئ وعجـزه عـن تمييـز الخطـأ مـن الصواب، فتحجر عليه وتحرمه من حقـه في الاطـلاع، والاستمتاع بتنحية الغث والاحتفاظ بالسـمين، مـثلما يستمتع مقتطف الورد تدمى يداه بأشواكها، فتقـدم له زاده الثقافي وَجْبَـةً جـاهزة منمطـة مثـل وجبـات (ماكدونالد) أو (كنتاكي).

* ورقابة المجتمع معـين لا ينضـب؛ مفتوحـة لكـل هـاوٍ ومحترف، بعدد غير محدود.

ولن تستطيع السلطة أن توظف لرقابتها غير عدد محدود مغلق من الرقباء يُدخل الإنتاج الثقافي- الذي يفترض أن يكون غزيراً -بهم في عنق زجاجة.

* ووفرة النقاد في المجتمع تجعل بعضهم يدعم بعضاً، فيعوِّض ذوو البصر النافذ فيهم، ضحالة السطحيين، فيما يشبه تدرج محاكم البداية فالاستئناف والتمييز، الذي يمنح القضية سائر الفرص حتى يخرج الحكم النهائي المبرم ناضجاً معللاً مقنعاً للجميع. - وحكم رقيب السلطة الأحادي يصدر قطعياً مبرماً منذ الدرجة الأولى؛ غير قابل لأي طريق من طرق الطعن، وغير معلَّل بما يطمئن إلى حصافة الرقيب.

* وإذا كان المجتمع قادراً على توفير العدد غير المحدود من المتطوعين ذوي الاختصاص العلمي والفني، لنقد أي عمل إبداعي، فإن ذلك متعذر على رقابة السلطة ذات العدد المحدود من الموظفين.

جدول المقارنة بين الرقابتين

رقابة السلطة	رقابة المجتمع
سرية	علنية
أحادية	تعددية
سابقة	لاحقة
وصائية	حرة
معوقة	مروجة
مسؤولية الرقيب محدودة عدد الرقباء	مسؤولية المؤلف والناشر بلا حدود
مبرمة قطعية	قابلة للحوار
إلزام سلطوي وصائي	التزام ذاتي طوعي
وجبة جاهزة منمطة	وجبات منوَّعة
تقتل القراءة	تعزز القراءة

* لن أسترسل في عرض النتائج المتباينة لكل من الرقابتين فلديَّ منها الكثير .. يكفي أن أؤكد ما أثبتته التجربة من أن مناهج الوجبات الجاهزة والثقافة الإلزامية

المنمّطـة، إنْ في المقـررات التعليميـة أو في الكتـب الثقافية، قد بغضت الكتاب إلى الطالـب والقـارئ معـاً، وأفقدتهما الاحترام والقداسة له، وأسهمت في إنتاج جيل مسطَّح، لم يفلت منه إلا من نأى بنفسـه عنهـا بقدراتـه الذاتية وعشقه للعلم ونهمه في المطالعة

لا تختلف الرقابة على المطبوعات في معظم بلـدان الـوطن العـربي، إلا في درجـة التشـدد الرقـابي، وزاويـة النظر.

ولا يزال على الناشر فيها، حين يزمع نشر كتـاب أن يعرضه قبل الطبع على أجهزة الرقابة، وأن ينتظـر رأيهـا فيه وحكمها عليه، الذي قد يتراوح بين السماح المطلـق، أو المشروط بـبعض الحـذف، وبـين المنـع الكـلي. وقـد يستغرق انتظاره بضـعة أشـهر، خاصـة إذا كـان عنوانـه مثيراً؛ مثل عنوان (**خوف لا ينتهي**)، مع أن مضمونه لا يخيف أحداً.

ومع أن هذه الإجراءات الرقابية تعيق حركة النشر في

عصر يتسارع فيه توليد الأفكار ونشرها، وتفقد فيه بعض المطبوعات قيمتها العلمية أو مناسبتها السياسية أو الاجتماعية قبل أن تغادر المطبعة وتصل إلى يد القارئ، فإن الناشر ما يزال يركن إليها ويألفها، ويفضلها على حرية النشر التي قد تعرضه لتحمل مسؤوليته عن الكلمة؛ سواء أكانت مسؤولية سياسية أو اجتماعية أو دينية. ولئن كان تذرعه بموافقة الرقابة المسبقة، قد يخفف من مسؤوليته، لكنه لن يعفيه منها، خاصة إذا ارتدت المسؤولية العباءة الأمنية.

على أية حال فإن مشكلة الرقابة المحلية، ربما كانت هي الأهون على الناشر العربي، فإذا ما تجاوزها، وطبع الكتاب ونشره في بلده، فإن عليه أن يحصل له على موافقات بعدد دول الجامعة العربية إلا قليلاً ممن أراح نفسه من عبء الرقابة المسبقة، لكلٍّ منها مزاجه ومعاييره وآلياته الخاصة به لممارسة هوايته في مراقبة المطبوعات الواردة إليه، وهي مدانة كلها مسبقاً حتى تثبت براءتها،

وإثبات البراءة- فضلاً عن الزمن الطويل الذي يستغرقه- سيكون متعذراً جداً في بلدان متباينة الأنظمة والاتجاهات، ويندر جداً أن ينجو كتاب من منع هنا أو حجر هناك، فإذا ما فتح له باب في بلد، أوصدت دونه أبواب في بلدان أخرى بذرائع شتى. والضحية دائماً هي القارئ المحروم من حقه في الاطلاع، ومن ورائه الثقافة العربية المحرومة من حقها في الإبداع، إذ الإبداع لا يزكو إلا في مناخ التعدد، وحرية التعبير، واحتكاك الأفكار، وتصادم الآراء،واحتدام النقد.

في عصر المعلومات وثورة الاتصالات التي نعيش، أفلتت الكلمة من سلاسل الرقيب، وانطلقت حرةً تصل إلى الإنسان في كل مكان، وتنهمر عليه من السماء عبر الفضائيات، وتنبع بين يديه في الأرض عبر الشابكات.. لم يعد الإنسان أسير الكلمة الواحدة والخطاب الواحد والرأي الواحد، فقد تعددت أمامه الخيارات إلى درجة الطوفان، وعليه أن يتقن السباحة في خضم المعلومات ليطفو على السطح ظافراً بخيراتها ناجياً من أحابيلها وآثامها.

لم يعد للرقابة معنى في عصر المعلومات، ولن تجديها وصايتها نفعاً، إذا لم تكن مسؤولية الكلمة التزاماً مشتركاً يضطلع بها الكاتب والناشر والقارئ جميعاً.

إن المسؤول عن الكلمة أولاً وأخيراً في نظري هو القارئ؛ بوعيه الناقد، وحسه الثقافي المرهف، يستطيع أن يوجه حركة الفكر والنشر؛ بإقباله على الإبداع المميز والإنتاج الثقافي النافع، يمكنه أن يصحح المسار، ويتجاوز الغثاء، وينحي الأفكار القاتلة، ويدفن الأفكار الميتة.

لا أخاف على القارئ النهم من الضلال، فنهمه في القراءة وتوقه للاطلاع سوف يهديانه إلى سواء السبيل، فالقراءة الواعية تصحح أخطاءها.

إنما الخوف الكبير على القارئ أن يحيد عن درب القراءة، وتتراخى يده عن الكتاب، فتلك هي الطامة الكبرى..

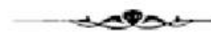
وأخلص إلى القول:

إن الالتـزام الطـوعي الـذي تـوفره رقابـة المجتمـع أجدى على الثقافة وأكثر مصداقية من الإلزام السـلطوي الذي فقد جدواه ومعناه؛ في عصر التفجر المعرفي الـذي أحدثته ثورتا المعلومـات والاتصـالات، فحطمتـا بـه كـل السدود والقيود والوصايات.

8- النضال من أجل حرية النشر

إن على الناشرين- في الـوطن العـربي- أن يناضـلوا- فرادى وجماعات عبر اتحاداتهم- من أجل حرية التعبير، وحرية النشر، وحرية مرور الأفكار.. من أجل أن يتحـرك الكتاب بلا حدود ولا قيود.. مـن أجـل اسـتعادة حقهـم المسـتلَب في الإسـهام بـدعم المنـاهج التربويـة بالكتـب الموازيـة والمسـاعدة وكتـب المطالعـة الحـرة، والتنـافس لإغنائها وإثرائها، وتحقيق مبدأ التنوع والتعدد الـذي لا يزكو من دونه إبداع.

وعلـيهم أن يمتلكـوا الشـجاعة لتحمـل مسـؤولية الكلمة التي ينشرونها، تجاه المجتمع والدولة؛ مسؤولية يخترقـون بهـا كـل أطـر الآبائيـة والماضـوية والتقليـد والاجترار والسكون، ليعيدوا للثقافـة العربيـة الإسـلامية حراكها وفعاليتها وقدرتها على العطاء والنماء..



الكتاب العربي
بين نقد المجتمع ورقابة السلطة[2]

أليس مما يبعث على الملل ويـدفع إلى السـآمة، إن لم أقـل إلى السـخرية، أن نكـرر عـلى أسـماع النـاس وأبصـارهم، حـديث أزمـات الكتـاب: أسـبابها وبواعثهـا وسبل الخلاص منها، من دون أن تجد واحدةٌ مـن هـذه الأزمـات طريقهـا إلى الانفـراج، أو يجـد اقـتراح مـن الاقتراحات سبيله إلى بؤرة الضوء وحيز التطبيق؟!

أشعر بكثير من الخجل والمرارة والرغبة في اللياذ بالصمت تجنباً لتداعيات القرف والغثيان، كلما دعيت للحديث عن أزمات الكتاب.. أشعر كـما لـو أني أعـاني

[2] كتبت لمجلة (وجهات نظر) في 2009/01/24 .

إدماناً غريباً؛ أكرر الشيء نفسه وأنا أحسب أني قد أتيت بجديد، كأني أتحول إلى مسجلة، ما إن تضغط على زر التشغيل فيها حتى تنطلق بحديثها المكرور. أو كأني ارتديت جبة واعظ عامّيٍّ يعتلي أحد المنابر، ما إن يؤذِّن بين يديه للخطبة حتى يستل من جيبه كتابه- المهترئ من كثرة الاستعمال - وقد وضع داخله علامة على خطبة اليوم، التي تكررت وستتكرر في اليوم ذاته من سنوات خلت أو هي قادمة.

ولكي لا يظن قارئي أني أبالغ أو أغالي من أجل لفت انتباهه، أو أني كرسام الكاريكاتير أضخم العيوب لاجتذاب نظره، أؤكد له أني أستطيع أن أنثر بين يديه عشرات الأمثلة تتراوح أعمارها بين عشر سنوات وخمسين سنة؛ مقالاتٍ صحفية، وندواتٍ ثقافية، ومحاضراتٍ، ومؤتمراتٍ، وتوصياتٍ بَلْهَ اتفاقيات، لو استبدلتَ بتاريخها الذي يعود إلى الأربعينيات من القرن المنصرم تاريخ اليوم الحاضر، لما شعر أحد بفعلتك التي فعلت، فالأزمة هي الأزمة.

أحد هذه الأمثلة : مقال منشور في مجلة الكتاب، في عددها الصادر عن دار المعارف المصرية في أبريل (نيسان) عام 1947م جاء فيه ما يلي: " انتهى إلينا أن اللجنة القانونية بجامعة الدول العربية قد وضعت مشروعاً لحماية الملكية الأدبية والفنية.. وهذا هو أمنية أهل الجد والكرامة من حملة الأقلام؛ لأن الملكية الفكرية لا يجوز أن تبقى نهباً لدى لصوص الإجهاد العلمي والإنشاء الفكري، فلا بد من حمايتها كالملكيات الأخرى، فهي ملكية مشروعة، لها قوتها وسلطتها وتعيينها.. إن طبع مؤلف الآخرين غصْبٌ بيِّن واعتداء صارخ على ملكية صاحب الكتاب، لأن الغاصب يستفيد مالاً بما لا مبرر له، كمن يسرق شيئاً يضعه في وعاء ويبيع الوعاء وما احتواه".

ومع أن أي نص قد يحمل في أسلوبه ما يحدد هويته والعصر الذي كتب فيه، فإني لا أجد في هذا النص ما يثير الارتياب في تاريخه لو أعيد نشره حاملاً أي

تـاريخ عـلى مـدى الأعـوام التـي أربـت عـلى السـتين، متزامنـة مـع بدايـة السـطو الإسرائـيلي عـلى فلسـطين، ونسب إلى أية مؤسسة أخرى ممن يهتم بشؤون الملكية الفكرية غير الجامعة العربية.

ومثال آخـر : قـرار مـؤتمر الـوزراء المسـؤولين عـن الشـؤون الثقافيـة في الـوطن العـربي، الصـادر عـنهم في دورتهم السادسة المنعقـدة في دمشـق في 21-23 أبريـل (نيسـان) 1987 المتضـمن مشروع (الاتفاقيـة العربيـة لتيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي) التي تم تنقيحها في ضوء الملاحظات التي تقدمت بها بعض الدول العربيـة، ثم حظيت بموافقـة المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلوم في مؤتمرها العام في دورته التاسعة المنعقـدة في تونس 19-1987/12/22 (في العام ذاته)، وقررت توجيـه الشكر للدول التي وقعت عـلى هـذه الاتفاقيـة ودعـوة الدول الأخرى للتوقيع عليها.

فبعد أن أوضحت المادتان الأولى والثانية المقصود

بالتعابير الواردة، وأنواع المصنفات المشمولة بالاتفاقية، تعاقبت المواد للنص على ما يلي:

المادة الثالثة : تعمل الدول العربية على تيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي.. (سواء داخل الأقطار العربية أو خارجها) بمختلف الوسائل الناجعة، ومنها بصورة خاصة:

أ- إعفاؤه من الرسوم الجمركية.

ب- منحه أولوية النقل بين الأقطار العربية.

المادة الرابعة : تعمل الدول العربية على أن يتمتع الإنتاج الثقافي العربي الوارد ذكره في المادة الثانية من هذه الاتفاقية بتعرفات نقل مخفضة على وسائل النقل بين البلاد العربية، بحيث لا تزيد تعرفات نقل هذا الإنتاج على 25% من تعرفات النقل المفروضة على السلع الأخرى.

المادة الخامسة : تعمل الدول العربية على إعفاء ما تستورده من مواد تدخل في عملية الإنتاج الثقافي

العربي من الرسوم الجمركية، وفي حال تعذر ذلك تضع الدول العربية رسوماً جمركية رمزية على هذه المواد المستوردة.

وبعدما أوضحت المواد السادسة إلى التاسعة بعض الإجراءات اللازمة لتطبيق بنود هذه الاتفاقية أو تجاوزها إلى ما يفوقها في اتفاقيات ثنائية، عادت لتتحفظ كالمعتاد.

المادة العاشرة : مع عدم الإخلال بالاتفاقيات المبرمة فيما بين الدول عربياً ودولياً، لا تمس أحكام هذه الاتفاقية حق كل دولة من الدول الأعضاء في أن تسمح أو تراقب أو تمنع - وفقاً لتشريعها الوطني - تداول أي مصنف في إطار سيادتها.

ولو استنطقنا الكتاب للإجابة عن تساؤلنا عما حدث له منذ اتفاقية عام 1987لتيسير انتقاله بين الدول العربية، لأجابنا، بصوت خافت مبحوح، وقلب كسير مهان:

ما رأيت غير مزيد من التعقيد والقيود، مزيد من

الرسـوم والأعبـاء، ونظـراً لنفـاذ بصـيرته التـي تهـتم بالمسـميات قبـل الأسـماء وبالنتـائج قبـل المقـدمات لم ينخدع بما أعلنته الأنظمة تطبيقاً للاتفاقيـة، مـن إعفـاء شكلي من الرسوم الجمركية عوضته أضعافاً مضاعفة بمـا فرضت عليـه مـن رسـوم أخـرى، أطلقـت عليهـا أسـماء شـتى، كمـن يأخـذ بإحـدى يديـه أضـعاف مـا أعطـاه بالأخرى.

مادة واحدة من الاتفاقية طبقتها الأنظمة بصدق وشفافية عالية هـي المـادة العـاشرة، فمارسـت حقهـا المزعوم في الرقابة على الأفكار، والوصاية عـلى النـاس، مفترضة قصور عقولهم، وعجزهم عن تمييز النافع من الضـار، والخبيـث مـن الطيـب، مـما يسـتدعي فـرض الحجر عليهم، وحجب الرؤية عن بصائرهم، ومـنعهم من الاطلاع على ما تمنعه السلطات، والاقتصار على مـا تسمح به، مبدية إشفاقها الحاني عليهم وسـهرها عـلى مصالحهم وحرصها عـلى إراحـتهم مـن عنـاء التفكـير،

مرددة قولة فرعون: {مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْـدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: 29/40] .

يقول الكتاب: لقد كنت قبل اتفاقية التيسير أتنقـل بين البلدان بكثير من اليسر؛ مـا إن أخـرج مـن المطبعـة حتى تستقبلني وسـائط النقـل المختلفـة بكـل ترحيـب لتقلني إلى مختلف الأصقاع؛ تتوقف جميع السـلع عنـد مـوظفي الجـمارك عـلى الحـدود، يـدققون مسـتنداتها ويتفحصـون شـهادات منشـئها وفواتيرهـا، ولا أتوقـف.. كنـت أشـعر بكثـير مـن الاحـترام، أجتـاز الحـدود كمـن يحمل جواز سفر دبلوماسياً، ترفع له التحية وتفـتح لـه الأبواب، لا أحتاج إلى إذن بالطبع، ولا إذن بـالخروج ولا بالدخول، لا يفصل بين ولادتي ووصـولي إلى يـد قـارئي في أي بلد عربي غير ساعات؛ يتفاوت عددها حسب تباعـد المسافات بين القاهرة وبيروت ودمشق وبغـداد وعـمان والدار البيضاء، ولم أكـن أحمِّـل القـارئ في بلـد المقصـد عبئاً مالياً يذكر فوق ما يحمله في بلد المولـد، إذ لم أكـن أطالَب في طريقي إليه بأية رسوم..

لا أنكر أن من بين لداتي وأترابي كتباً تتوارى زهراتها

خلف أشواك تدمي اليدين، وأن فيها ما يتشكل بأشكال الورود، ويتلون بألوانها الزاهية، وهو يخفي في طياته السم الزعاف، وأن فيها ما ينطوي على الأحقاد والضغائن ويضمر الشر والإيقاع بالقارئ، وفيها ما يمتلئ بالغثاثة والتفاهة لتزجية وقت الإنسان بما لا ينفع إن لم يضر؛ وفيها، وفيها.. ولكن صدقوني أن القارئ كان دائماً أكثر وعياً وأشد يقظة من رقباء آخر الزمان. وما أكثر ما دَفَنَ من هذه الكتب في مقابر النسيان والإهمال، وما أكثر ما ألقى منها في حاويات النفايات؛ فلم يبقِ بين يديه ولم يحتف إلا بما ينفعه من أدب وعلم.

أنى للقارئ أن يتكون لديه هذا الوعي، لو لم تدمَ يداه بتنحية الشوك ليصل إلى الأزهار ويقطف الثمار؟!

- أنى له أن تتكون لديه هذه المناعة لو لم يتدرب على فرز الخبيث وتمييز الغث، وتذوق المر وتجنب لسع الأفاعي؟! ولقد رأيت هذا القارئ ينزلق أحياناً مجاراة لبعض ما قرأ، ثم سرعان ما يسترد صوابه بعد قراءة أخرى، فعرفت أن القراءة تصحح أخطاءها، وأن من يقرأ أكثر ينمُ أكثر..

ثم إني رأيت في ظلال نظم الوصاية والحجر -أياً كان نوع الوصاية والحجر - عجباً..

رأيت كتباً دفنها وعيُ القراء عشرات السنين، فأحياها ضجيج الاستنكار والقمع وهي رميم..

ورأيت كتباً ممنوعة تنتشر في أيدي القراء، يدفعهم حب الاطلاع لاقتنائها واجتلاء أسباب منعها، وذلك طبع في الإنسان جبل عليه في جيناته الوراثية، فكل ممنوع عليه مرغوب لديه، وكل مبذول له مزهود فيه..

ورأيت كتّاباً وناشرين فطنوا لهذا الطبع الإنساني فاستخدموه وسيلة للترويج، وطريقاً للنجومية، فسعوا إلى استصدار قرارات المنع، واستثارة الضجيج والإنكار، ولم يكن حصادي من ذلك كله غير المزيد من التسطح الفكري والعوز الإبداعي بين ثقافة سلطوية (مؤدلجة) في اتجاه واحد يرفضها القارئ برماً بها، وبين (سيناريوهات) الترويج لثقافة التهريج التي يديرها المتسلقون من أدعياء الإبداع.

ويتابع الكتابُ بث أحزانه، مستعيداً ذكريات صباه وأيام عزه: لقد كنت دائماً تحت الوصاية، ولكن شتان بين وصايتين؛ أولاهما كانت تكلني إلى المجتمع، وتسلم زمام أمري إلى كبار الأدباء والكتّاب، يختصمون فيَّ، ثم يحتكمون إلى قواعد وضوابط تعارفوا عليها، تكشف الزيف، وتميز الخبيث من الطيب..

يومها كانت الكلمة مسؤولية، يتردد الكاتب في قولها، ويقلبها على وجوهها قبل أن يخطها في كلمات، حتى لا يُسلق بألسنة حداد، أو يشوى على السفود كما فعل العقاد بطه حسين!.

وكان النقد جاداً يسهم بفعالية في توليد الأفكار وفي إنضاجها، مثلما يسهم في تداولها فيستخلص سمينها وينفي خبثها..

وكانت الحركة الثقافية، على ضعف أدواتها، نشطة صاخبة؛ تمور بالأفكار يضخها المبدعون الرواد، ويتلقفها المجتمع بكل فئاته زاداً معرفياً قد أنضجه النقد

الموضوعي، وتباينت فيه وجهات النظر تأييداً ومعارضة، تترك للقارئ إصدار حكمه بعد إعمال عقله، فيصبح هذا القارئ جزءاً من عملية الإبداع وإنتاج الأفكار.

أما الوصاية الأخرى التي وليت أمري في آخر الزمان، فقصمت ظهري وأفسدت عيشي وعطلت وظيفتي، وحالت بيني وبين قارئي؛ فهي (الرقابة) بكل أشكالها السلطوية الرسمية، والدينية، والاجتماعية.

آه من الرقابة!! ثم آه من الرقيب!! لقد استيقظ ضمير الدولة الحديثة فجأة أواسط القرن المنصرم، واستشعرت مسؤوليتها عن ثقافة الأمة وصيانتها من الاختراق والعبث والتلوث، فاستحدثت وزارات للثقافة والإعلام، وزودتها بميزانيات ضخمة لإنتاج ثقافة الاتجاه الواحد والرأي الواحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واستصدرت قوانين للمطبوعات منحتها صلاحيات واسعة تمكنها من ممارسة جميع أشكال الحجر والمنع والقمع والمصادرة والتجميد والحبس حتى الإعدام.

لم يعد القارئ في نظرها، ذلك الراشد الذي وهبه الله

عقلاً قادراً على التمييز والمحاكمة، بل أصبح قاصراً، يستوجب قصورُه إحكامَ الوصاية عليه، حرصاً على أمنه الثقافي.. فحجرت عليه، وأوكلت أمره إلى رقيب وعتيد يتوليان الإشراف على مقروءاته وتنقيتها من الشوائب: أما رقيب فيقيم في الإدارة المركزية، يتولى الإذن بطبع الكتب والدوريات، وإصدار قوائم المسموحات والممنوعات، يصدر قراراته أحكاماً مبرمة غير قابلة لأي من طرائق الطعن أو النقض والمراجعة، أحكاماً أبدية لا تسقط بمرور الزمن، ولا يعاد النظر فيها عند تغير الأحوال. وقرارات رقيب هذا غالباً ما تكون عشوائية مزاجية، شأنه شأن الرقباء الآخرين، تختلف قراراتهم باختلاف أمزجتهم وثقافاتهم وآفاقهم، وأمرهم كله عجب، فواحد يمنع وآخر يسمح، لا تعرف لم سمح هذا ولم منع ذاك.

وأما عتيد فيقف على الحدود، الأصل عنده المنع، فإذا أمسك بكتاب مستعلن في يد مسافر أو مستخف في حقيبته؛ طالبه بموافقة رقيب وإلا فالمصادرة.

ولم تقتصر الوصاية على مصادرة حرية القارئ في اختيار ما يقرأ، وإيصاد أبواب المعرفة في وجهه، والحيلولة دون إرواء حبه للاطلاع، بل هي تقف في مراكز إنتاج المعرفة على أبواب المفكرين والمبدعين؛ تعلن تقديرها لهم وتقديسها لحرية التفكير مكرَهة، نتيجة عجزها عن الولوج إلى تلافيف عقولهم للحد منها، ثم تفرض وصايتها على حرية التعبير؛ افتئاتاً عليها بوصفها حقاً من حقوق الإنسان التي منحه الله تعالى إياها؛ تسوغ ذلك بذريعة الأمن الثقافي، وهي في الحقيقة إنما تنشد أمنها السياسي أكثر مما تنشد أمن الأمة الثقافي.

والفكرة عند أجهزة الرقابة تولد مدانة منذ أن تنفصل عن ذهن مبدعها، وعليها أن تقضي بضعة أشهر في حبس احتياطي أحكمت تحصينه في أقبيتها، فإذا انقضت المدة، فإما أن يفرج عنها لثبوت براءتها من تهمة المساس بالنظام العام، أو إقلاق الراحة العامة، أو الخروج عن الأعراف والتقاليد السائدة، وإما أن تمدد فترة الحبس الاحتياطي لأجل غير مسمى، وهو ما أطلق

عليه مصطلح التريث أو التجميد، وإما أن تواجه الحكم المبرم بإعدامها ومنعها من الطباعة والتداول.

ونظراً لأن ثقافة الرقباء- مهما عظمت واشتُرطت لها المؤهلات العالية والشهادات- تظل محدودة، فإنه ينبغي على كبار العلماء والأدباء والمفكرين أن يراعوا ظروفهم وإمكاناتهم، ولا يثقلوا عليهم بمفاهيم أعلى من قدرتهم على التمثل، وأفكار أعلى من قدرتهم على الاستيعاب.

ونظراً لأن عدد هؤلاء الرقباء يظل محدوداً بمحدودية عنق الزجاجة- مهما تعاظموا، وتعاظمت قدراتهم على القراءة- فإنه ينبغي على الإبداع، الذي يفترض فيه ألا يكون محدوداً، أن يمر من خلال ذلك العنق ويجتازه.

هكذا تتسطح الثقافة، فيتكيف المفكرون مع فكر الرقباء، ويهبطون بأفكارهم، فلا يبقى لها وزن يتغلغل في الأعماق فيحرك مياه المستنقع الراكد، ولا صوت يدوي في الأسماع فيوقظ النائمين في خيام الغفلة والتخلف .. ويتضاءل الإبداع

ويضـمُر لـكي يتسـنى لـه المـرور مـن عنـق الزجاجـة، ويتمكن من اجتياز العقبـة.. ويـتمادى الفاصـل الزمنـي بين إبداع الفكرة ووصـولها إلى القـارئ، بانتظـار دورهـا عـلى طاولـة الرقيـب، ولـو أدى الانتظـار إلى أن تفقـد قيمتهـا ويفـوت أوانهـا في عصر المعلوماتيـة وسرعـة التحولات. ويتخفف القراء من عناء القراءة، فلا يقرؤون إلا ما يجود به الرقيب، وبذلك تتجنب ثقافتهم السـمنة والترهل، ويحققون لأفكارهم ما تتطلبـه أنظمـة الرقابـة من ضمور ورشاقة فيها؛ أصـبحت لـديها مطلبـاً عصريـاً أسوة برشاقة الأجساد.. وتضـيق سـاحة انتشـار الكتـاب نظراً لتباين الاتجاهـات لـدى أنظمـة الرقابـة، واتفاقهـا جميعاً على الأحادية والانغلاق ورفض الآخر، فما يُسمح به هنا يمنع هناك، و قلما ينجـو كتـاب بجلـده ليتحـرك حراً طليقاً هنا وهناك.

ولـئن ابـتلي مجتمـع بمثـل هـذه الرقابـة الأحاديـة، فلسـوف تصـاب ثقافتـه بالكسـاح والطفولـة المزمنـة والعجز عن النماء، لأن الفكر الأحادي عقـيم لا ينجـب، والأفكار لا تنمو إلا بالتزاوج.

أمـا إذا ابـتلي مجتمـع برقابـة مزدوجـة متباينـة (علمانية وإسلامية مثلاً)، فلن يقرأ هـذا المجتمـع شـيئاً، وسيرتاح من عناء التفكير أبداً ليأوي إلى كهف يغـط بـه في نوم عميق خارج التاريخ.

ويشـهق الكتـاب متسـائلاً: أأخـرج مـن القـرن العشرين أسوأ مما دخلت فيه؟!

كانت هذه أشجان الكتاب كما رواها لي..

أما أنا، فـلي في أزمـات الكتـاب رأي آخـر مختلـف: ففي عصر المعلومـات، وثـورة المعلوماتيـة والاتصـالات، وهذا المنعطف الخطير الـذي تمـر بـه البشريـة بتسـارع مذهل، لتتحول من عصر صـناعة المـواد الـذي تتفـاوت فيه الأمم فـيما تمتلكـه مـن خامـات وثـروات وتقنيـات ومصـانع، إلى عصر صـناعة الأفكـار الـذي يتسـاوى فيـه الـبشر فـيما يمتلكونـه مـن نعمـة العقـل؛ هبـة اللــه للإنسـان، فيقفـون جميعـاً عـلى عتبـة سـباق واحـدة، يستقبلون ألفية ثالثة، سوف يتغير فيها كل شيء..

مستقبل الرقابة في عصر المعرفة

سوف يقترب الناس بعضهم من بعض، ويتعـارفون، وتتمازج الحضارات.. وسـوف يتخـاطبون عـن بعـد مـن دون أســلاك ولا أدوات.. وســوف تســقط المســافات والأبعاد والحدود وسائر القيود.. - وسوف تنمو الأفكـار وتُسال المعلومات إلى الإنسان في كل مكـان، كـما يسـال الماء والغاز والكهرباء؛ قطرات تنهمر عليه من فضائيات السماء، وينابيع تتفجر بين يديه مـن شـابكات الأرض. - وسيلوذ الإنسان بالقراءة طوق نجاة يعصمه من الغـرق في طوفان المعلوماتيـة الهـادر مـن حولـه.. - وسـيذهب ورق الكتاب، ومداد الكاتب، ومقص الرقيب، وتعليمات الوصي، وقوانين المطبوعـات، وقوالـب (الأيـديولوجيات) إلى متــاحف التــاريخ مــع الديناصــورات. - وســينكسر احتكار الحقيقة والمعرفة، وينعم الناس بنعمة الاختلاف التي أنعم اللـه عليهم بهـا وسـيلة للـنماء والارتقـاء.. - وستسقط الوصايات الفكريـة وتتهـاوى أنظمـة الحجـر، وتتراخــى قبضــة الســلطة عــن الثقافــة، التــي سيشــتد ساعدها، ويزداد تأثيرها، ويعلو شأن المثقفين..

وستتعدد الخيارات أمام المتلقي، فلا يبقى أسير الصوت الواحد، والرأي الواحد، بل سيصغي إلى الصوت الآخر ويتفهم الرأي الآخر، ويسود الحوار.. - وستتبدل الأذواق والعادات والتقاليد وأنماط الحياة وأساليب العيش ووسائط النقل وطرائق التعليم والتوثيق. - ولسوف تزول جميع المشكلات التقليدية للكتاب، لتحل مكانها مشكلات جديدة تستدعي التأمل. - وستذهب أنظمة الرقابة، بكل أشكالها، ولن يكون إصرارها على ممارسة هوايتها بالوصاية على الكتاب- ذي العدد المحدود- إلا نوعاً من التشبث بالماضي دفاعاً عن الذات وثأراً من الكتاب لكرامتها التي داستها الفضائيات والشابكات ذوات القدرة غير المحدودة على الاتصال.

ويسألني المشفقون على ثقافة الأجيال: هل نرفع الوصاية، ونطلق العنان ، ونترك الحبل على الغارب ؟! وأقول في الجواب : أنا مع تكوين (المناعة) لدى المتلقي، حتى يرفض الغثاثة ذاتياً ويقرف منها، ويقبل على المبدع والنافع

فيتفاعل معه، ويسهم في إشاعته. ولست مع (المنع) الذي يروج للممنوع فطرياً، فيقبل عليه الناس لاستطلاع أسباب منعه.

وأنا مع تقديم (البديل) الأكثر نفعاً؛ أعمل فكري في اقتراحه، والتحريض على إنتاجه، والدعوة إليه، والإسهام في نقده ليشتد ساعده ويقوى عوده.

إن وعي القارئ هو وحده جهاز المناعة القادر على تحصين ثقافة المجتمع وتنقية أجوائها، وهو جهاز الرقابة الكفيل بتوجيه الثقافة ونفي خبثها {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [الرعد: 17/13] .

فلتوحِّد الرقابة مرجعيتها
ولتوضح معاييرها[3]

هـمُّ الرقابـة مـا زال يـؤرق النـاشرين العـرب، ويكبلهم، ويعرقل طموحـاتهم التنافسـية، ضـمن حركـة النشر العربية، التي تنطلـق في بعـض البلـدان المجـاورة حرة بلا قيود.

ففـي عصر الانفجـار المعـرفي الـذي آلـت الإنسـانية إليه، لم يعد مقبـولاً أن ينتظـر النـاشر مـدة- قـد تتجـاوز بضعة أشهر إلى السنة - ريثما تأتيه الموافقة على الطباعة، فتكون المطبوعة قد فات أوانها، وبهت بريقها، إن كانـت تتناول حـدثاً جاريـاً- سياسـياً، أو اجتماعيـاً، أو علميـاً- أو تكـون قـد باتـت تفتقـر إلى تحـديث معلوماتهـا في عـالم

---

[3] نشرت في جريدة تشرين 2009 .

أخذ يضاعف معلوماته بضع مرات في العقد الواحد، أو تكـون قـد سـبق إليهـا نـاشرون منافسـون في البلـدان المتحررة من قيود الرقابة.

قد تكون المدة التـي تقضـيها المطبوعـة في الرقابـة التي تتم ضمن وزارة الإعلام مقبولة إلى حد مـا، خاصـة بعد التوجه الواضح نحو التخفيف من وطأتها.

لكن الأمر يختلف عندما تحال المطبوعـة إلى جهـة أخـرى، فتتطلـب إحالتهـا شـهراً، ووصـولها شـهراً آخـر، ورقابتها شهراً، وعودتها شـهراً، وتسـليمها للنـاشر شـهراً، لتسـتغرق مـدة الرقابـة خمسـة أشـهر، بسـبب الرتابـة (الروتين)، في دهاليز الدواوين.

والأمر يتفاقم- على نحو أكثر إيلامـاً- عنـدما تحـال الكتـب إلى اتحـاد الكتّـاب العـرب بحجـة أنهـا أدبيـة، فتتطاول المدة إلى مدد لا تقل عن ستة أشهر في أحسـن الأحوال، وتتجاوز السنة في بعض الأحوال، ولا نقول ذلك من قبيل المبالغة، فلدينا من المسـتندات والشـكاوى مـا يفوقه طولاً وعنتاً.

وإن لنا - نحن الناشرين- مع رقابة اتحاد الكتّاب العرب لوقفة نتساءل فيها عن الدور الوصائي على الإبداع الأدبي الذي أسند إليه، وعن أثر هذا الدور في نمو الإبداع أو وأده!!

فبالإضافة إلى المدة التي يسجن فيها الإبداع في أقبية الاتحاد حتى يبهتَ وتجف عروقه وتصفرَّ أوراقه، يمارس الرقيب عليه دور مدقق لغوي، هو من مهمات الناشر ومسؤوليته، ودور ناقد أدبي هو من مهمات أدباء المجتمع ومثقفيه، ودور عسس أخلاقي لا يعجز مديرية الرقابة في وزارة الإعلام أن تقوم به بكفاية.

فهل نطمع بإعفائنا من وصاية اتحاد الكتّاب، لنصبح شركاء متساوين في حمل أمانة الكتاب؛ مؤلفين وناشرين؟!

حرية التعبير..

على الطريقة الدانماركية!![4]

الأمة الإسلامية

وقد ساءها ما نشر في الدانمارك والنرويج من رسوم كاريكاتيرية تسخر من المسلمين ورسولهم، ورأت في توقيت نشرها في جريدة (جلاندز بوستن) الدانماركية قبيل رمضان، وإعادة نشرها في جريدة (ماجزينت) النرويجية في عيد الأضحى المبارك؛ إصراراً على النيل من المسلمين وشعائرهم، يندرج في إطار الحملة الشرسة على الإسلام سبقه فيها تدنيس المصحف في غوانتانامو؛ لا يحتمل التجاهل أو السكوت.

---

[4] بمناسبة الرسوم المسيئة لشخصية الرسول ﷺ المنشورة في الدانمرك، كتبت في 2006/01/29 .

إن حرية التعبير واحدة من الإنجازات الإنسانية الكبرى التي أرستها دساتير العالم، وتوافقت عليها المجتمعات، وأكدها الإسلام، ويكافح الناشرون من أجل احترامها وممارستها ودعمها. - لكن حرية التعبير ليست منفلتة ولا أحادية الجانب، فلها ارتباط وثيق باحترام الآخر ورأيه، لا يسمح باستغلالها للإساءة إلى معتقدات الآخر وقيمه وتراثه وثقافته،ولا بالاستهانة بها وتحقيرها.

إن الطبقة المثقفة من المسلمين، إذ تؤكد احترامها لحرية التعبير، لتستنكر أن تكون هذه الحرية وسيلة للاعتداء على الثقافة العربية الإسلامية، التي هي تراث إنساني غني بالقيم التي تثري الحضارة الإنسانية؛ يعتز به مئات الملايين، وترى في هذا الاعتداء ما يستوجب المسؤولية القانونية والأخلاقية الدولية فضلاً عن المحلية.

وهي ترى أنه كان من الأجدر بمن يتذرع بحرية التعبير وسيلة لتحقير المسلمين والاستخفاف بشعائرهم،

أن يكفوا عن تكميم الأفواه بحجة معاداة السامية، وكل ما يتصل بها، إلا إذا كانوا يعتقدون أن نهش لحوم المسلمين وحدهم حلال لهم. وإذ ذاك فإن لدى المسلمين من قيمهم ما يعصمهم من نهش لحوم الآخرين، على كل ما فيه من إغراءات للنهش..



كتاب بلا حدود[5]

الحلم والواقع : إننا نقـرأ ونسـمع عـن أطبـاء بـلا حدود، وعن مراسلين بلا حدود، ونشاهد فضائيات تعبر القارات بلا حدود، ونعيش عولمة تصهر العالم في بوتقـة بلا حدود .. فهل نحلم يوماً أن يكـون لنـا (كتـاب) بـلا حدود؟! أم أن الحدود صفة للكتاب ملازمة له، لا تنفك عنــه مــا دام حــبراً عــلى ورق، لم يتحــول إلى أقــراص ممغنطـة، وشاشـات مضـاءة، وبـرامج فضـائية؟! أم أن الحدود والقيود ضربة لازب، وصفة من صفات الكتاب، لا تفارقه؟ فلم يكـن الكتـاب كـذلك، يـوم كنـا نتسـنم ذروة الحضارة، وقد كان العـالم الـذي يؤلـف كتابـه في الشـام، يجـد كتابـه قـد سـبقه إلى الأنـدلس، أو إلى

---

[5] كتبت لمجلة ناشرون، 2005 .

مصر أو ما وراء النهر، وأشبعه الطلبة والنقاد درساً وتمحيصاً، فإن هو أزمع الرحلة إلى بعض هذه البلاد ويمم شطرها وجد من ينتظره لمناقشته.. سيان في سرعة انتقاله أن يكون مضمونه مواتياً للفكر السائد أو مخالفاً، بل إن جدته وطرافته وإبداعه، ومخالفته؛ كلها عوامل حافزة إلى سرعة الانتقال. والانتقال يومها كان على ظهور الإبل والبغال.

ولم يكن الكتاب كذلك في فجر نهضتنا الحديثة، حين كان ينتقل في أرجاء الوطن العربي يعبر الحدود بكل حرية وترحاب.

وأمّا أن يكون (كتاب بلا حدود) حلماً يداعب أجفاننا، فلنقف هنيهة على الحدود، ولننظر ما يكابده الكتاب في انتقاله عبرها!!

إن انتقال الإنسان من بلد إلى بلد، قد يستلزم تأشيرة للخروج من دوائر الهجرة في بلد الإقامة، وأخرى للدخول من سفارة بلد المقصد.. أما الكتاب فإن انتقاله

لا يزال يحتاج إلى مزيد من المعاملات الرقابية والمالية والأمنية والجمركية، وإلى كثير من الامتحانات الصعبة، إن هو أفلح في اجتيازها في بلد، عجز عن اجتيازها في بلد آخر.. فهو لا بد من أن يكون مقبولاً هنا ومرفوضاً هناك وسط رقابات متباينة، وقرارات عشوائية تفتقر إلى المعايير المشتركة.

ثم إن الوقت الذي تستغرقه هذه الإجراءات والامتحانات قد يمتد عدة أشهر، تفصل القارئ عن تاريخ صدور الكتاب، يحدث ذلك في عصر أصبحت المعلومات تنهمر عليه من كل مكان حيثما كان، في لحظة صدورها، وتسارع تطوُّر المعلومات وتوليد الأفكار فيه إلى درجةٍ قصَّرت من عمر المعلومة، وعرضتها لسرعة الشيخوخة والبلى.

فإذا اطلع القارئ من خلال أجهزة الإعلام على إعلان عن كتاب، وتطلّع إلى اقتنائه، واجهته عقبة الرقابة، وأملَّه طول الانتظار، حتى يفتر حماسه

للكتاب، بعد أن يكون الكتاب قد فقد جدته وبهاءه، أو يكون قد أهمل وفات أوانه.

الذرائع والدوافع : تتذرع أجهـزة الرقابـة بـالخوف عـلى مسـتقبل الثقافـة، وضرورة تحقيـق الأمـن لهـا، وتجنيبها ما يعكر صفوها أو يشوش عليها. وهـي بهـذه الـذرائع تفـترض قصـوراً في وعـي القـارئ فتفـرض عليـه وصايتها لتقول له: اقرأ ولا تقرأ.

وقبل أن نبحث في جدوى هذه الأوامـر والنـواهي، ومدى قدرة أجهزة الرقابة على تطبيقها، علينا أن نحاول فهم المسوِّغات والدوافع من ورائها.

ذلك أن هذه الدوافع غالباً ما تكون نبيلة، يحدوها الخوف على الأجيال مـن الانحـراف، والرغبـة في تقـديم الأفضل لهم.

لكنَّ الأفضل لهم في مجال الثقافة لا يتأتى إلا من خلال الإبداع، وتوليد الأفكار، والأفكار كائنات حيـة لا تتوالـد إلا بـالتزاوج، ويعـبر عنهـا المثـل الـتركي أروع

تعبـير: «بارقـة الحقيقـة لا تنقـدح إلا عنـد تصـادم الأفكار»، فإذا ما وجهت الأفكار في اتجاه واحد - هو ما يمليه الوصي، أياً كانت وصايته؛ سياسية أم اجتماعيـة أم دينيـة - عقمـت وعجـزت عـن الإنجـاب، ثـم أدركتهـا الشيخوخة والفناء.. فتكون الرقابة قد أسـهمت - بفـرط محبتها للثقافة - في وأد الثقافة وقتلها، «ومن الحب ما قتل».

ثـم إن للثقافـة آفاقـاً لا تحـدها الحـدود، ولا تسـتوعبها القوالـب الجـاهزة، فكيـف تسـتطيع أجهـزة الرقابـة - مهـما توسـعت - أن تسـتوعب الأفكـار والإبداعات، مهما تضاءلت؟! هل يستوعب المحدود غير المحدود، إلا إذا أمسك بخناقه وكـتم أنفاسـه.. وهيهـات أن يتأتى لـه ذلـك؟! ولعـل مـن الـدوافع - النبيلـة وغـير النبيلـة - للرقابـة؛ أن تحـافظ عـلى اسـتقرار الأفكـار في المجتمـع، والحيلولـة دون التشـويش عليهـا بأفكـار جديدة قد تـكون مخالفة للمألوف.

فإذا صح ما يقال من أن أحوال المجتمعات ما هـي

إلا ثمرات أفكارها، كـان مـا تعانيـه الأمـة مـن التخلـف نتيجة لما تحمله من أفكار وتصـورات، وكانـت محافظـة الرقابة على اسـتقرار هـذه الأفكـار والتصـورات إسـهاماً منها في إطالة أمد تخلـف الأمـة، وكانـت قـرارات المنـع الصادرة عنها وأداً للإبداع، وحرماناً للقارئ مـن ممارسـة حقه في الاطلاع، بحثاً عن خلاصه خارج إطـار المسـموح والمفسوح والمألوف والمكرر والراكد.

وما عسى أن تكون المؤهلات التي تتمتع بها أجهزة الرقابة هذه.. مهما علت تلـك المـؤهلات، أهـي مؤهلـة للوصاية على المؤلف، وقد يكون هـذا الأخـير قـد أفنـى عمره في تكوين ثقافته؟ أم هـي مؤهلـة لفـرض الحجـر على القارئ، وغالباً ما يكون هذا القارئ أكثر وعياً، وأشد نهماً في القراءة من الوصي عليه؟!

المعايير المشـتركة : مـا معـايير هـذه الرقابـة؟ لمـاذا تسمح؟ لماذا تمنع؟

أغلب ظني أن قرارات الرقابة عشـوائية مزاجيـة

مسكونة بالخوف من الإبداع، والرعب من تجاوز المألوف، والهلع من تحريك الراكد والمستنقعات الثقافية التي أسِنت من طول الأمد.. وهي غالباً ما تصدر مبرمة لا تقبل أي طريق من طرق الطعن والتظلم، وغير معللة بسبب، حتى إذا الفكرة { الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) } حارت جواباً.

ولربما يخفف من وطأة الرقابة أن تكون لها معايير واضحة، وزمن محدد، وطرق للطعن والتظلم، فإذا ارتقت هذه المعايير إلى أن تكون مشتركة في أنحاء الوطن العربي، أمكن للكتاب أن يستخدم الإذن الصادر له في أي بلد عربي ليعبر به الحدود بلا قيود، ويتحقق بعض الحلم.. إلى أن يتحقق بعضه الآخر فيتحرر الكتاب من جميع القيود والحدود، مثلما تحررت منافِسَتُه الكلمة العابرة للقارات عبر الفضائيات وشبكات المعلومات، لتصل إلى المتلقي في كل مكان، في اللحظة التي تولد فيها، غير مبالية بأجهزة الرقابة، ولا مكترثة بها.

لقد حققت الكلمة في عصر العولمة والمعلوماتية والاتصالات أحلامها، ووصلت إلى مئات الملايين في بيوتهم ومكاتبهم، بل تواصلت مباشرة معهم، تاركة لأجهزة الرقابة أن تتسلى بالآلاف المعدودة المطبوعة من الكتاب، وأن تمارس وصايتها عليه ثأراً لكرامتها التي داستها ثورتا المعلومات والاتصالات.

دراسة الجدوى : أما دراسة الجدوى؛ جدوى الإمساك بخناق الكلمة المطبوعة (المحدودة في عدد نسخها وآليات انتقالها ووصولها) بعد إفلات الكلمة المبثوثة في الفضاء من القبضة، وجدوى قرارات المنع، إزاء تحديات تقنيات النسخ التصويري والمهتوف والإلكتروني.. فأتركها لصاحبة العصمة (الرقابة)، لترى في ضوئها رأيها هل تستمر أم تنسحب؟!

من وحي الضجة

حرية التعبير ومسؤولية الكلمة[6]

1- ظاهرة الضجة

تثور بين الحين والآخر ضجة حول عمل أدبي أو فكري أو فني ما تلبث أن تتحول إلى مجرد وسيلة من وسائل الترويج لهذا العمل، وطريقة لتصفية حسابات سياسية، على حساب المجتمع وحقه في تشجيع الإبداع من جانب، وحماية مقدساته من جانب آخر.

لا بد من دراسة معمقة لهذه الظاهرة المتكررة التي ما تلبث أن تهدأ وتُصَفَّى- على حساب المجتمع غالباً- حتى تثور من جديد.

---

[6] 2001/07/25 .

لقد ثارت في مستهل القرن الحادي والعشرين ضجة حول رواية (وليمة لأعشاب البحر)، وكانت إثارتها ظاهرة تستحق التوقف والتأمل، فالرواية (موضوع الضجة) صدرت طبعتها الأولى عام 1982 أي قبل ثمانية عشر عاماً، ولابد أن روايات وأعمالاً أخرى تتبنى الاتجاه ذاته والنهج نفسه، تكون قد واكبتها خلال هذه الفترة، فغفلة المجتمع عما لاحظه فيها الآن من مساس بمقدساته؛ تدل على أنه مجتمع لا يقرأ، وأن الفكر لديه غير متداول، فهو من ثم لا ينقده، ولا يحلله، ولا ينتفع به إن كان فيه ما ينفع، أو يرمي به في حاوية المهملات، إن لم يجد فيه جديداً يذكر، أو يدفنه- غير مأسوف عليه - في مقبرة الأفكار الميتة والقاتلة، إن كان منها.

كما أن توقيتها الآن قد يشي بدوافع سياسية، لا تلغي حق المجتمع في نقدها- مهما جاء هذا النقد متأخراً- حتى لو تركه لأجياله القادمة.

2- الحصيلة والحصاد

- انقسام المجتمع إلى فريقين يتكتلان لتبادل السباب والشتائم والاتهامات: فريق يدعي الدفاع عن حرية التعبير؛ بوصفها شرطاً أساسياً للإبداع والتغيير، وآخر يدعي الدفاع عن المقدسات والقيم، بوصفهما حصن المجتمع وسياجه الذي يصونه من التفسخ والانحلال.
- تكريس لثقافة التقاطع والتدابر، وتأكيد لنظرية المؤامرة، ونفي للآخر دفاعاً عن الذات، ومزيد من الأحقاد والضغائن بعيداً عن أجواء التحاور بحثاً عن المخرج.
- إشهار واسع لصاحب العمل (مبعث الضجة)، وترويج كبير لعمله، لم يكن ليحلم به لولاها.. حتى إن بعض الناس باتوا يشكون في الدوافع، ويعدون إثارة الضجة وسيلة من وسائل الترويج المفتعلة، دونها الإعلانات المأجورة في أشهر الفضائيات، فهي

تشغل المجتمع مجاناً بكـل وسـائله الإعلاميـة، مسـلطة الضوء على موضوعها بين أخذ ورد..

فإن هي اقترنت بما تعمد إليه بعض السلطات مـن إجراءات المنع والقمع والمصادرة، فسوف تحقق فرصتها الذهبية، وحلمها المنشود في أفضل ترويج لسلعة مهملة في مجتمع عازف عن القراءة.

ولسوف يتهامس الناس بأمرهـا، ويتحـرك أبعـدهم عن عالم القراءة للبحث عنها، ولن يعجزه العثور عليهـا، مهما كلفه ذلك من جهد ومـال ومشـقة، فكـل ممنـوع مرغوب، وكـل محجـوب مطلـوب، تسـاعده عـلى ذلـك التقنيـات المتطـورة للنسـخ المبـاشر أو المهتـوف أو الإلكتروني.

ولسوف يقبل عليهـا هـواة الـنشر التجـاري لإبـرام عقـود لطبعـات خاصـة، وللترجمـة إلى لغـات أجنبيـة، وتقوم لها أسواق بيضاء وسوداء، توفرها بأسعار متفاوتة حسب الحالة الراهنة.

- ثم تهدأ الضجة، بعد توزيع الألقاب بين فقهاء ظلام وأدعياء تنوير، ولا يكون الخاسر الأكبر غير المجتمع، المرزوء في حقه المزدوج في حماية إبداعه وفي حماية مقدساته على حد سواء.

3- في غياب النقد

تخرج الأفكار من ساحة التداول، وتضيق ساحة الثقافة، وتتبلد الأذهان، وترتفع الوصايات، وينتشر القمع والمنع، ويسود السباب والتنابذ بالألقاب، ويضمحل الإبداع، ويغيب الحوار، وتتسلع الثقافة، وينحصر العلم بالمقررات على مقاعد الدرس، وتنام المصادر والمراجع على أرفف المكتبات يعلوها الغبار، ويتقاعس القائمون على المكتبات العامة عن تزويدها بالجديد، ويعزف الناس عن القراءة متذرعين بمختلف الذرائع الواهية؛ مثل ضيق ذات اليد بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة ومحدودية الدخل، وضيق ذات الوقت بسبب تعقد وسائل الحياة، ومنافسة الوسائل الإعلامية الجديدة للكتاب.. وكل ذلك أعذار لا تقوم بها حجة، فلو صح منهم العزم، وقَدَروا القراءة قدرها، ومنحوها- بوصفها غذاء

العقل- الأولوية التي يمنحونها للرغيف- بوصفه غذاء المعدة- بل لكماليات مجتمع الاستهلاك التي يلهثون وراءها؛ لو فعلوا ذلك لوجدوا للقراءة الوقت والمال، ولما ناموا ثمانية عشر عاماً قبل أن يلحظوا ما تمور به جداول الأدب والثقافة والفن تحت أعينهم الغافية.

ولن يكون لهذا العزوف القرائي، ولغياب التداول والنقد العلمي والأدبي، إلا مزيد من التثبيط عن الإبداع للمفكرين.. مزيد من التسطح الثقافي.. مزيد من التعفن، واللامبالاة ونظم قصائد اليأس والإحباط والموت.

4- الأصالة (القيم والمقدسات)

كل المجتمعات تبحث عن جذورها، وينمو اعتزازها بها كلما أوغلت في أعماق التاريخ.. تجد توغلها في الأعماق رسوخاً لقدمها على الأرض، وطاقة لتحليقها في السماء. وتغض الطرف خجلاً من ضحالة جذورها- إن كانت ما تزال في مرحلة التكون والنشوء- مخافة أن تذهب أعمالها {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}

[إبراهيم: 18/14] {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللـهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللـهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرار (26) } [إبراهيم: 14/24-26] .

هكذا اضطر رئيس وزراء اليابان إلى الاعتذار إلى الشعب الياباني عما لاحظه في كلمة له من مساس بالتراث الإمبراطوري الياباني.

ومن هذه الجذور تنبثق جذوع وأغصان تحمل قيماً ومبادئ، تترسخ في ذاكرة الأجيال، حتى تبلغ مرتبة التقديس والثبات.. ومع أن الحياة كدح متواصل من أجل الارتقاء والتقدم، وأن تاريخ البشرية قد سجل نبض هذا الارتقاء، ولاحظ ظاهرة التسارع في وتائر التقدم حتى باتت هذه الوتائر تحسب بعقود السنين بعد أن كانت تحسب بالقرون والآلاف، فإن حياة الإنسان على هذه

الأرض لـن تسـتقيم عـلى جـادة، ولـن يصـفو كـدرها، وستظل صراعاً بين الحـق والباطـل، والخـير والشر، ولـن ينتهي الصراع إلا بانتهاء الحياة الدنيا للإنسان..

وستظل حاجة الإنسـان في هـذه الحيـاة ماسـة إلى مرجعية يأرِزُ[7] إليها ويلوذ بها، كلما أشكل عليـه أمـر، أو حاقت به مصـيبة.. ولـن تكـون مرجعيتـه غـير جـذوره وقيمه ومقدساته.

نعـم قـد تتصـلب الجـذور، وتتحجـر المقدسـات، وتتكلس القيم بحكم الإلـف والاعتيـاد والتكـرار وطـول الأمد، فينبري الإبداع والتجديد لتليـين مـا تصـلب منهـا، وتفتيت ما تحجر، وتنظيف ما تكلـس، ودفـن مـا فـات أوانه.. - وبذلك يكون الإبـداع والتجـدد حارسـين للقـيم والمقدسـات والجـذور، ويحـافظ المجتمـع عـلى إيقـاع تقدمـه وارتقائـه، يضـمهما بذراعيـه الحـانيتين: الأصـالة والإبداع .

---

[7] يأرِزُ إليها: يعود ويجتمع بعضه إلى بعض .

5- حرية التفكير وحرية التعبير

هما المناخ الملائم للإبداع..

لا يزكو الإبداع من دون حرية في التفكير، وحرية في التعبير، ولئن كانت الحرية حقاً طبيعياً من حقوق الإنسان، تحترمه كل الشرائع والدساتير ويرقى في التعاليم الدينية إلى مرتبة (الحق المقدس) الذي لا يجوز المساس به، ولا الحد منه بأي وسيلة من وسائل القمع أو المنع أو الوصاية أو الحجر.

فإن القرآن العظيم لم يكتف بإقرار حق الإنسان في الحرية وتحريم المساس به، بل عدّه واجباً من واجباته ينبغي عليه أن يمارسه، وهو مسؤول عن أدائه.

فأما حرية التفكير فقد أكد القرآن استحالة تعطيلها أو الحد منها {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: 256/2]، وأكد أنه لا الإيمان ولا الكفر يمكن أن يكونا بالإكراه؛ فقال لرسوله منزهاً: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}

[يونس: 99/10] ، وقال نـوح لقومـه: {يـاقَوْمِ أَرَأَيْـتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْـدِهِ فَعُمِّيَـتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [هـود: 28/11] ، واسـتثنى اللــه تعـالى مـن العقـاب {مَـنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} [النحل: 106/16] . كـما رتـب العقـاب على من يعطل عقله عن التفكير، وعد الإنسان مسـؤولاً عن عدم استخدام وسائل المعرفة والمحاكمة التـي زوده بهـا {إِنَّ السَّـمْعَ وَالْـبَصَرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولَئِـكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْـؤُولاً} [الإسراء: 36/17] ، وحــرر الإنســان مــن كــل أشكال الوصاية السلطوية؛ اجتماعية كانت أم آبائيـة أم دينية، فلم يقبل معذرة الـذين {وَقَـالُوا رَبَّنَـا إِنَّـا أَطَعْنَـا سَـادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَـا فَأَضَـلُّونَا السَّـبِيلاَ (67) } [الأحــزاب: 67/33] ، ولا الذين {قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَـدُونَ} [البقـرة: 170/2] ونبههم: {إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللـهِ} [التوبة: 34/9] .

وبـذلك كلـه جعـل التفكـير فريضـة يجـب عـلى الإنسان أداؤها ويأثم لتركها.

ولم يكن توكيد القرآن على حرية التعبـير أقـل مـن توكيده على حرية التفكير، فسـواء أكانـت الفكـرة علـماً تعلمـه الإنسـان أو شـهادة شـهدها، فقـد حـرَّم عليـه كتمانها: {وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [البقـرة: 283/2] ، وأمـره بـالتعبير عنهـا، وهـو مـا أطلـق عليـه مصـطلح (التبليغ) الذي أمر اللـه تعالى به رسله، وقصر مهمـتهم عليـه: {لِـيَعْلَمَ أَنْ قَـدْ أَبْلَغُـوا رِسَـالاَتِ رَبِّهِـمْ} [الجـن: 28/72] ، وقالت الرسل لأقوامهم: {وَمَـا عَلَيْنَـا إِلاَّ الْـبَلاَغُ الْمُبِينُ (17) } [يس: 17/36] ، وأعفى اللـه تعالى رسوله من المسؤولية عن إعراض من أعرض بعد التبليـغ: {وَمَـا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (7)} [عبس: 7/80] ، {فَإِنَّمَـا عَلَيْـكَ الْـبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: 40/13] .

6- الأنبياء والبلاغ المبين

لم ينتظر الرسل من مجتمعاتهم منحهم حق التعبير عن رسالاتهم، بل مارسوه من طرف واحد، كما تؤدى الواجبات المقدسة، وتحملوا مسؤولية كلمتهم كاملة، بكل شجاعة وإصرار.

كانت الرسالة التي يبلغونها مخالفة لأفكار مجتمعاتهم، وكانوا دعاة تغيير شامل، ويعرفون حق المعرفة مدى تشبث أقوامهم بأعرافهم وتقاليد آبائهم، ومدى استبسالهم في الدفاع عن موروثاتهم ومقدساتهم، لكنهم مضوا في تبليغ رسالتهم بكل عزيمة وإصرار.. كانوا أبناء مدرسة واحدة، ذات منهج واحد، مارسوه بدقة بالغة، لم يحيدوا عنه قيد أنملة.. لم يكونوا يملكون غير الكلمة؛ الحجة؛ البرهان؛ الدليل والبينات.. لم يثوروا ولم يتآمروا ولم يغدروا.. لم ينكصوا ولم يلينوا ولم يعتذروا.. لم يحملوا سلاحاً، إنما فتحوا صدورهم مشرعة لتلقي السهام..

هكذا فعل نوح {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يـاقَوْمِ إِنْ كَـانَ كَـبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللـهِ فَعَلَى اللـهِ تَوَكَّلْـتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ} [يونس: 71/10] .

وهكذا فعل الأنبياء جميعاً: {أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّـذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُـودَ وَالَّـذِينَ مِـنْ بَعْـدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللـهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَـرَدُّوا أَيْـدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنّا لَفِـي شَـكٍّ مِمّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللـهِ شَـكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى قـالُوا إِنْ أَنْـتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنـا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونـا بِسُـلْطانٍ مُبِـينٍ (10) قالَـتْ لَهُـمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْـنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِـثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللـهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنـا أَنْ نَـأْتِيَكُمْ بِسُـلْطانٍ إِلاَّ بِـإِذْنِ اللـهِ وَعَـلَى اللـهِ فَلْيَتَوَكَّـلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللـهِ وَقَـدْ هَـدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَـلَى مـا آذَيْتُمُونـا وَعَـلَى اللـهِ فَلْيَتَوَكَّـلِ

الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (14) } [إبراهيم: 14-9/14] .

بلاغ مبين يقابل بالرفض والتشكيك.. إصرار وبيان يقابل بالتشبث بتراث الآباء وبالإيذاء والتهديد بالطرد والنفي.. صبر وقوة احتمال تتهاوى بعده قلاع التقليد.. إنها قوة الكلمة تهزم بطش اليد.. وانبلاج نور الحق تتبدد إزاءه جحافل الظلام.

7- تجديد الأنبياء وتحجر الأتباع

مع أن جميع الأنبياء جاؤوا بالتجديد، ونادوا بالتغيير، فإن كثيراً من أتباع الأنبياء كانوا عوائق ضد التجديد والتغيير.. لم يفطنوا إلى سر التجديد المستمر في رسالة الأنبياء.. توهموا أن التغيير يحصل دفعة واحدة؛ مرة واحدة، ثم تتوقف الحياة عنده سائرة بوتيرة ثابتة على نمط واحد لا يتغير.. لم يدركوا سيرورة الحياة وتطورها في طريق كدحها إلى الله.. لم يتذوقوا معنى ختم الرسالة وانقطاع

وحي السماء، ثقة بأن الإنسانية قد بلغت رشدها وأن العقل الإنساني أصبح قادراً على متابعة خطا الأنبياء.

إنه طول الأمد الذي حذر الله منه المؤمنين بالرسالة الخاتمة، وإيمانهم لا يزال غضّاً ممتلئاً بالحيوية والنماء.. وجاء تحذير الوحي إياهم من الإخلاد إلى السكينة وطول الأمد، وهو لا يزال يتنزل عليهم، يرسم لهم طريق ارتقائهم وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.. جاءهم بصيغة الاستنكار والتذكير الشديد: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) } [الحديد: 16/57] .

إنه داء الأمم السابقة: تأتيها الكتب والبينات فتستهدي بها وتستضيء بنورها، وتعتاد الطواف حولها، وتنسى أن تغذي جذوتها بوقود التجديد المستمر، فتنطفئ الجذوة وتبقى الشمعة، ويستمر الطواف حولها جسداً بلا روح، ومصباحاً بلا نور.. وتصبح العقائد والمقدسات طقوساً فاقدة لروحها،

والعبـادات عـادات تتخلـف عـن تقـديم مضـامينها الاجتماعية التي كانت لها: فلا الصلاة تصبح ناهيـة عـن الفحشاء والمنكر، ولا الصـوم أو الزكـاة أو الحـج تحقـق شـيئاً مـن مقاصـدها في حيـاة الإنسـان الفرديـة والاجتماعية.

هذه هي الصورة التي ألمح إليها الرسول ﷺ في رده على زياد بن لبيد: «أَوَليس اليهود والنصارى بأيديهم الكتاب ولا ينتفعون منه بشيء؟» لتحول الكتاب إلى شكل بلا مضمون، وجسد بلا روح، وذلك هو التحجر وقسوة القلب.

ولذلك أيضاً أشار الرسول ﷺ إلى الحاجة الدائمة إلى التجديد بقوله: «يبعث اللـه على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها».

8- بين تجديد الأنبياء وتجديف الأدعياء

قد يتفقان في رفع الحصانة عـن مقدسـات الآبـاء، وممارسة حريتهما في النقد ومواجهة سخط المجتمعات المحافظة.. لكن بينهما بوناً شاسعاً:

إن تجديـد الأنبيـاء مقـرون بنبـل المقصـد وشرف الغاية والإخلاص في العمل والتجـرد عـن الـذات وإيثـار الآخـر، وتحـري الحقيقـة.. وتجـديف الأدعيـاء مشـوب بطلب الشهرة، وغرض السياسة، ودوافع الأثرة، وحـالات اليأس والإحبـاط التـي تقـود الإنسـان إلى التحـالف مـع الشيطان.

فتجديد الأنبياء حركة إلى الأمـام، في اتجـاه التقـدم الـبشري نحـو إجابـة مقنعـة، تفلـح في تزويـد البشريـة بتصـور واضـح عـن الكـون والإنسـان والحيـاة، يصـلح للإجابـة عـن تسـاؤلاته المتجـددة، ويحـرره مـن إصر الخرافة وأغلال الاستعباد، ويطمئنه على مصيره وشـوقه إلى الخلود وتحقيق العدالـة في الحيـاة الآخـرة، إن فاتـه تحقيقها في الحياة الدنيا.. وقد أدت هذه الحركة دورها بنجاح، وحققت أغراضها، وأنهت مهمتها بختم الرسـالة، تاركة للعقـل الـبشري متابعـة مسـيرتها بعـد أن سـلمته المصباح، وأوضحت له الطريق.

وتجديف الأدعياء حركة إلى الخلف، تعمل على تعتيم الصورة، وإطفاء المصباح، وهدم القيم، وإعادة الإنسان إلى قلقه السابق، وطرده من مأواه الذي كان يأرِز إليه، وهتك أستاره ليخرج عرياناً يهيم على وجهه كالسوائم، من دون تقديم بديل يؤوي، أو إجابة تشفي، أو تصور يقنع..

إن الحقيقة هدف للإنسان بعيد المنال، يلهث وراءه، ويقضي حياته باحثاً عنه؛ ما إن يمسك بحقيقة يركن إليها، ويسير على هديها، حتى تظهر له حقيقة أخرى أنصع بياناً، وأقوى حجة، وأجدى نفعاً، فيتمسك بها، ويترك الأولى تأخذ مكانها في السجل التاريخي لتطور المعرفة البشرية، المتنامي الصاعد على الدوام، غير آبه بالانتكاسات المعرفية، لأنه يرفض العودة إلى وراء.

هل استطاع تجديف الأدعياء- على الرغم من كل أردية الحداثة التي يكتسيها، ودعاوى التنوير التي يدعيها- أن يأتي بجديد يلفت انتباه التاريخ المعرفي

للبشرية، ويحقق منعطفاً جديداً يحيد به عن دعوة الأنبياء؟!

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (81) } [المؤمنون: 81/23] ، {قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [النحل: 24/16] ، {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ} [الجاثية: 24/45] ، وتساءلوا: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} [الواقعة: 47/56] ، {وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) } [الصافات: 14/37] ، {فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر: 24/74-25] ، {فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا} [الأنعام: 136/6] .

لقد سجل القرآن الكريم ما قاله المجدِّفون الأولون، ولم يمل المجدفون المحدثون من تكرار مقولاتهم ذاتها على مر التاريخ، فماذا كان نصيبهم من التاريخ؟!

لقد ذهبت التجربة الإنسانية بكل تهويمات المجدفين، وأكدت حاجة الإنسان إلى عقيدة تذهب به أبعد من

ظلمة القبر، إلى خلود ينعم بـه بعـد عنـاء مكابدتـه في حياته الدنيا.

وتجاوز التقدمُ العلمي المذهل كل التصورات التـي قدمها المجدفون للكون والحياة والإنسان، ليرسخ عقيدة الإيمان بتطور موجه يديره خالق مدبر {يَزِيـدُ فِي الْخَلْـقِ مَـا يَشَـاءُ} [فـاطر: 1/35] ، {لَـيْسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ وَهُـوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11/42] ، {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْـرُ كُلُّهُ} [هود: 123/11] .

وأثبت العقل البشري جدارتـه بحمـل رايـة الإيمـان التي سلمها له الأنبياء؛ مؤكداً أن رسـالة الأنبيـاء تتجـدد ولا تتبـــدد، وأن عصر الأنبيـــاء قـــادم، لا تهـــزه ريـــاح الخماسين.

سئل سيدنا عيسى عليه السلام: كيف نميـز الأنبيـاء الكذبة؟ فأجاب: من ثمارهم تعرفونهم.

9- الإبـداع حـق للإنسـان لا يجـوز لـه أن يتعسـف في استعماله

فكل حق للإنسان يقابله واجب عليه أن يلتزم بـه، والواجــب هــو الطــرف الأســاسي في المعادلــة، فــأداء الواجبات يكفل تحصيل الحقـوق، ولـو أدى كـل إنسـان واجبه لحصل كلٌّ على حقه، أمـا إذا ذهـب كـل إنسـان يطالــب بحقــه ويـنسى واجبــه، فمــن الــذي ســيعطي الحقوق ولمن؟

ومن هنا نشأت في الشرائـع والقـوانين فكـرة (منـع التعسف في استعمال الحق)، وهي فكرة تميز بها الفقـه الإسلامي، وكان له فضل إبداعها وإقرارها.

فليس ثمة حقوق مطلقة، وإنما ينتهي حق الإنسـان عندما يتعارض مع حق إنسان آخر، فكيـف إذا تعـارض مع حق مجتمع بأسره.

والإبداع ابتكار يرتب لصـاحبه حقـاً فكريـاً ماديـاً ومعنوياً يحميه القـانون، ويمنحـه بـراءة اخـتراع، فهـل يبسط القانون حمايته أو يمنح براءتـه إلى لـص يخـترع

مفاتيح لأبواب البيوت الآمنة، أو لمجرم يخترع سموماً أو أشعة تقتل الإنسان عن بعد، وتخفي بصمة القاتل؟!

هل للقانون أن يبسط حمايته لمعتدٍ على مقدسات المجتمع وهادمٍ لقيمه، بذريعة حقه في الإبداع؟!

أليس الطعن بمقدسات المجتمع والاستهزاء بقيمه تعسفاً في استعمال الحق، يستوجب المسؤولية والعقاب؟

وهل الكلمة السامة والفكرة القاتلة أضعف تأثيراً من مفاتيح اللص أو سكين المجرم؟!

10- حياة الأفكار

الأفكار كائنات حية؛ تولد وتترعرع وتتوالد وتشيخ وتموت، وككل الكائنات الحية، يكون منها السويُّ ومنها الرديء، ومنها الولود ومنها العقيم، ومنها المخصب ومنها المجدب، ومنها النافع ومنها الضار، ومنها الذكي ومنها الغبي، ومنها الأصيل ومنها الطفيلي.

والمجتمع هو الذي يتولى رعاية أفكاره والعناية بها، فهي ثروته ومستقبله، وعليه أن يقوم بتوفير المناخ الملائم، والتربة الصالحة، لبذر الأفكار وسقايتها، ثم تعشيبها لتنحية الضار والطفيلي عنها، ثم قطف ثمراتها وفرزها لتوظيفها ومعالجة العليل منها، وإزاحة ما فسد وتعفن، لرميه في حاويات الإهمال، ثم دفن ما فات أوانه وأدركه الموت في مقابر التاريخ.

وبقدر ما يبذله المجتمع من جهد في رعاية أفكاره بقدر ما تنمو ثروته الفكرية، أو تذوي في حالة إهمالها.

وإنما تنمو الأفكار وتتكامل وتتفاعل بأمرين يشكلان خطوتين أساسيتين:

أولاهما النقد : الذي يتلقى الفكرة ويخضعها فور صدورها للدراسة والتحليل، ويدلي بآرائه في تقييمها وتقويمها، مما يحرك الساحة الثقافية، ويؤكد أهمية العمل الفكري وجدواه من جهة، ويؤكد مسؤولية الكلمة والمحاسبة عليها من جهة أخرى، فلا يُلقى الكلم على عواهنه كما يحدث في المجتمعات الراكدة.

ومع أن للنقد أدواته وأصوله، فإنه سيأتي لا بد بوجهات نظر مختلفة وآراء متباينة؛ تتولى الخطوة الثانية غربلتها وتنقيتها واستخلاص زُبدتها وإزاحة زَبَدِها.

وثانيتهما الحوار : والحوار منطق وحجة، ودليل وبرهان، لا مكان فيه للسب والشتم والتسفيه والقمع والإرهاب والتكذيب وإسكات الآخر ونفيه. ومن قواعده القرآنية: الأدب، والصدق، والعلم، والتجرد، والتشبث بالدليل، والبعد عن التناقض، وعن المكابرة، وإهمال المسلَّمات المسبقة، وتوخي الحقيقة. ومن نتائجه التفاهم والتعاون والتكامل وتوضيح الغامض، وكشف الملتبس، وإضاءة المظلم، وتبيان مواطن الخطأ، وإظهار العيوب بغية تجنبها.

فإن هو تجاوز قواعده وأهملها، انقلبت إيجابيات نتائجه إلى نقائضها من التنازع والتناحر والتقاطع والتدابر.

وانقلبت نعمة التعدد والاختلاف بوصفهما وسيلة

لتنميـة الأفكـار وتنقيتهـا، إلى نقمـة يحصـد المجتمـع نتائجها المدمرة.

11- ثنائيات الخارطة الفكرية

لقد انقضى الوقت الذي كان النـاس يصـنِّفون فيـه إلى ظلاميين أو تنويريين، وتقدميين أو رجعيين، وتـراثيين أو حداثيين، بحسب مواقعهم ذات اليمين وذات اليسار.

فقد انكشف الآن أن الظلام والرجعيـة والتراثيـة أو التنوير والتقدم والحداثة، لا علاقة لها بالاتجاه إنما هـي صفات قـد تكـون في أهـل اليمـين، كـما تكـون في أهـل اليسار.. وما أكثر المحنطين والمتحجرين هنا وهناك.

12- الثقافة في عصر المعلومات: مناعة وبديل

في عصر الانفجار المعلوماتي الأعظم، الذي تنهمر فيه المعلومات من السماء عـبر الفضـائيات، وتنفجـر به الأرض عيوناً عبر الشابكات، مخترقـة كـل الحـدود والسدود، زاخرة بكـل خـير وشر، عارضـة كـل حسـن

وقبيح. لم تعد الوصايات وأساليب المنع ممكنة فضلاً عن أن تكون مجدية.

وليس لأصحاب القيم والمبادئ و (الأيديولوجيات) إلا أن يجتهدوا في تحقيق أمرين:

أولهما : تكوين المناعة لدى أجيال المعلوماتية، بتوعيتهم كي يتمكنوا من التمييز الذاتي بين الخير والشر بأنفسهم، بدلاً من الأسلوب القديم؛ أسلوب المنع وفرض الوصايات الذي كان يُعَرِّضهم لأعراض نقص المناعة الفكرية (الإيدز الفكري) التي قد تعصف بهم عند اصطدامهم بأول رأي آخر كان محجوباً عنهم.

وثانيهما : طرح البديل النافع في نظرهم، ليأخذ مكانه بين مئات البدائل إن لم تكن آلافها، فسيبقى منها الأصلح والأكثر نفعاً، حسب القانون الإلهي العظيم {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ} [الرعد: 17/13] . وبموجب هذا القانون ستذهب كثير من الروايات جُفاءً، وستندثر مع أمثالها من الزَّبَد، وسيؤوب مؤلفوها بالخيبة والخسران المبين.

لا تحدّثوا قوانين المطبوعات

فقد فات أوانها[8]

إن أي محاولة لتحديث قوانين المطبوعات، ستكون مثـل محاولـة إعـادة الشـيخ إلى صـباه الـذي ولى، عـن طريق حقنه بالهرمونات.. وهيهات!!

أو ستكون مثل محاولة ليُسـتبدل بعملـةٍ متداولـة ورِق أهـل الكهـف الـذي فقـد قيمتـه وصـلاحيته بعـد انقضاء الأجل المضروب لاسـتبداله، ولم يعـد أمامـه مـن فرصة غير التوجه إلى متـاحف الآثـار، ومسـاومتها عـلى شرائه على أنه تحفة..

علينـا أن نَقْـدُرَ عامـل الـزمن، وأن نـدرك أي عصر نعيش، وأي منعطف تاريخي نجتاز، وأي مرحلة نقطع.

---

[8] 2000/12/15 .

(تحديث قوانين المطبوعات): كلمات ثلاث، اسمحوا لي أن أتعرفها وإياكم لنخوض في مناقشتها على بينة، وأن أبدأ بآخر كلمة فيها (المطبوعات):

فقد عرفها القانون السوري الصادر بالمرسوم التشريعي رقم 53 لعام 1949 في مادته الثانية: «ب - المطبوعة هي كل شيء مطبوع، وكل رسم أو خريطة منشورة».

ثم عرف في الفقرة (ج) المطبوعة الدورية بأنها: «كل مطبوعة تصدر باسم معين، وبأجزاء متتابعة، تحتوي على أخبار وحوادث وصور ومقالات وملاحظات».

ثم أضاف في الفقرة (د) تفسيره للنشر بأنه: «عرض المعلومات على الجمهور وبيعها وتوزيعها».

ونظراً لارتباط المطبوعات بالمطبعة، فقد بادر إلى تعريفها في الفقرة (آ) بأنها: «كل آلة أو جهاز أعد لنقل الألفاظ والصور والشارات على ورق أو قماش، أو غير ذلك من المواد..».

ولم ينسَ أن يعرف في فقرته (هـ) المكتبة بأنها: «كل مؤسسة تستثمر تجارة الكتب والمؤلفات والمطبوعات الدورية، أو تعرضها على الجمهور لغاية تجارية».

ولنرتق الآن إلى الكلمة الثانية (القانون)، ثم لنستعن على تفهم معناها بالقانون السوري ذاته، الذي أكد في مادته الأولى: «إن المطابع والمكتبات والمطبوعات على اختلاف أنواعها حرة، ولا تقيد حريتها إلا في نطاق هذا القانون».

أما الكلمة الثالثة (التحديث)، فتعني - بالمفهوم الشائع-: تعديل النصوص بحسب ما تقتضيه المستجدات، طبقاً للقاعدة الفقهية القائلة بتبدل الأحكام باختلاف الأزمان؛ مواكبةً للتطور، وتكيفاً مع معطياته.

نستطيع إذن أن نستخلص من نصوص (قانون المطبوعات العام) السوري الصادر بالمرسوم التشريعي رقم 53 لعام 1949، ومن سائر تعديلاته التي كان آخرها المرسوم التشريعي رقم 16 لعام 1962، النتائج الآتية:

1ً- أن موضوع القانون هو المطبوعات؛ الدورية منها وغير الدورية.

2ً- وأن المعنيين بنصوص القانون هم:

أ - الكُتَّاب على اختلاف مواقعهم: مؤلفين وصحفيين ومحررين ومترجمين.

ب- المطابع: التي تنقل المعلومات إلى حرف مطبوع.

ج- الناشرون وأصحاب المكتبات: الذين يعرضون المعلومات ويوزعونها على الجمهور.

3ً- وأن الأصل في (المعلومات): حرية التعبير عنها.

4ً- وأن القانون مخول بتقييد هذه الحرية، بما تفرضه المصلحة العامة للمجتمع ونظامه السياسي، وما تقتضيه صيانة الحقوق الطبيعية للأفراد، من قيود وضوابط.

5ً- وأن نصوص القانون بحاجة مستمرة إلى التعديل والتطوير للتكيف مع المستجدات.

وعلى الرغم من توسع قانون المطبوعات والنشر الإماراتي رقم 15 لعام 1980، بتعريف المطبوعات لتشمل «كل الكتابات أو الرسومات أو القطع الموسيقية أو الصور الشمسية أو غير ذلك من وسائل التعبير بأي مادة كانت، سواء كان ذلك مقروءاً أم مسموعاً أم مرئياً، إذا كان قابلاً للتداول» [مادة 1]..

على الرغم من هذا التوسع، فإنه لم يضف إلى مشتملات القانون وموضوعه، عملياً فيما تناوله من أحكام، غير الأفلام السينمائية والعروض المسرحية (المشاهدة)، ليخضعها إلى الرقابة أسوةً بشقيقتها المادة المطبوعة (المقروءة) من كتب وصحف ومجلات.

وهكذا نرى أن الموضوع الرئيسي لقوانين المطبوعات هو - كما يدل عنوانها-: الكلمة المطبوعة في كتاب أو صحيفة، وأن الغرض الرئيسي منها هو فرض رقابة الدولة عليها، وتقييد حرية التعبير فيها.

ربما يكون من حق الدولة - بما تقدمه من مسوِّغاتٍ

لحماية أمنها السياسي، وأمنِ المجتمع الثقافي، وحقٍّ الإنسان في صيانة شرفه وسمعته وعرضه- أن تفرض هذه الرقابة، مع بعض التحفظ من جهة ضمان حق المجتمع في توفير المناخ الملائم للإبداع.

ولكن!!

ماذا لو تحررت الكلمة من إسار الطباعة، واستغنت عن سائر مستلزماتها من مطبعة وورق وأحبار؟!

ماذا لو تحررت الفكرة من ربقة الحرف، ولاذت بالصوت والصورة والحركة والوسائط المتعددة للتعبير عن نفسها؟!

ماذا لو استبدلنا بالصحيفة والكتاب المطبوع، أوعيةً أخرى، أقل كلفة، وأخف وزناً، وأصغر حجماً، وأكثر قدرة على استيعاب المعلومات وتخزينها وتصنيفها وفهرستها، لتكون أيسر استخداماً عند استرجاعها، وأجدى عطاءً، وأعم نفعاً؟!

ماذا لو أفلتا كلاهما من يد الرقيب ليحلقا في الفضاء،

عابرين للقارات، قافزين فوق كل الحواجز، متجاوزين كل الحدود، ساخرين من كل القيود، ليصلا إلى الإنسان في كل مكان؟! ثم ليصغيا إلى أنّاته يجمعانها من كل مكان؟!

ماذا لو أُسيلت المعلومات إلى الإنسان لتتفجر بين يديه عيوناً عبر الشابكات (الإنترنت)، ولتغمره شلالاتٍ تنهمر عليه من الفضائيات، تضع أمامه آلاف الخيارات، يقلبها كيف يشاء؟!

ما الذي سيبقى من قانون المطبوعات، غير أن يتلهى بالتعامل مع حفنة لا تبلغ نسبتها من حجم المعلومات المتاحةِ للإنسان الواحدَ من الألف؟!

حتى هذه النسبة الضئيلة من حجم المعلومات التي تمثلها الصحافة والكتاب والسينما والمسرح، ما مدى قدرة الرقيب في السيطرة عليها؟! ما جدوى وصايته وقيوده التي خوَّله القانون فرضها؟!

ثم - بغضِّ النظر عن عشوائية قرارات المنع التي يتخذها، ومزاجيتها وافتقارها إلى الموضوعية والمعايير،

وأُحاديَّتها واحتكارِها الحقيقة ورفضِها الآخرَ- هل يستطيع تطبيق شيء منها؟!

ألم تتركه وسائل الاتصال، وتقنياتُ النسخ المتطورة، ورغبةُ الإنسان في الاطلاع على المجهول، وتحدي الفطرة الذي يصرُخ في أعماقه: كلُّ محجوب مطلوب، وكلُّ ممنوع مرغوب.. ألم يتركه ذلك كله عاجزاً عن تنفيذ قراراته التي تُنتهك على مرأى منه ومسمع؟!

أليس الأجدى على المجتمع في عصر المعلومات أن يستبدل بالمنع (الذي بات في حكم المستحيل)، تكوينَ المناعة التي لا تنمو إلا في ظل الحوار وحرية التعبير عن الرأي، وبالقمع الذي يقوم على احتكار الحقيقة وحجبها عن الآخر، تقديم البديل الذي يستوجب تنمية روح الإبداع واستيلاد الأفكار عن طريق تعددها واحتكاكها؟!

وإن كان جلُّ ما بقي لقانون المطبوعات - بعد تجاوز الزمن لمسألة الرقابة، وثبوت إخفاقها وعقمها- أن يحدد شروط منح الرخصة لإصدار صحيفة أو مجلة، أو افتتاح

دار للسينما والعرض المسرحي، والعقوبات التـي تترتـب على مخالفة هذه الشروط؛ فهل انتظر النـاس - في عصر المعلومـات والمعلوماتيـة - رخصـة القـانون، لـكي يلقـوا بأفكارهم؛ إرسالاً وتلقياً عبر الفضائيات والشابكات؟!

حدثني صديق، أنه بينما كان يتابع موزعه لتزويده بصـحيفة خارجيـة، تـأخرت عـن النـزول إلى السـوق، بانتظار حصولها على موافقة الرقيب، سأله ولدُه- وكـان مستغرقاً خلف جهازه الحاسوبي على الشـابكة، وقـد رثى لحال أبيه المتشوق إلى الصحيفة -: ما الخبر الذي تريده منها؟ ثم قدم له الخبر المطلوب المحجـوب كـما أوردتـه خمس عشرة صحيفة إضافة إلى الصحيفة التي يريد.

لـئن كـان جـيلي أنـا وصـديقي محكومـاً بقـانون المطبوعات، ولم يتقن بعدُ السباحة في خضم المعلوماتية والمعلومات، فإن جيل الأبناء والحفدة الـذي يعـيش في غمار هذا الخضم ويغالب أمواجـه، لـن يسـتطيع فهـم هــذا القــانون ولا التعامــل معــه، مهــما اجتهــدنا في

تحديثه وتزيينه له؛ لأنه خلق لزمان غير زمانهم، يتحدث عن مشكلات لا يعانونها، ولا تهمهم.

جل ما يمكن أن نفعله من أجل تحديث قانون المطبوعات، قبل أن يدسه التاريخ في التراب بعد زوال موضوعه أن نضيف إلى عنوانه كلمة واحدة ليصبح: (قانون المطبوعات التقليدية)، وأن نوفر له سبل الاحتضار الهادئ، فالرسول ﷺ يقول: «ما أنزل الله من داءٍ إلا أنزل له دواءً إلا الهرم».

أما (المعلوماتية) القادمة، التي تعيش البشرية الآن مرحلة الانتقال إليها، فهي متمردة على القانون، ترفض الانصياع لأوامره، عالمية الصبغة لا تتوقف عند حدود المكان والأوطان، إنسانية النزعة لا تفرق بين قوي وضعيف وغني وفقير، وتضع الجميع على عتبة السباق أمام فرص متكافئة ليستثمروا نعمة العقل التي وهبهم الله وميزهم بها من سائر مخلوقاته. وليبلوهم أيهم أنضج فكراً وأكثر عطاءً وأحسن عملاً.

قيود الرقابة والحجر الفكري[9]

تشكل قيود الرقابة التحدي الثاني للكتاب بعد جائحة الأمية والعزوف القرائي، فهي لدى معظم الأنظمة العربية، مسألة سيادة ومسألة ثقافة، وهي بهاتين الصفتين لا تحتمل المساومة، ولا النقاش، ويصدر الحكم فيها على الكتاب في معظم أرجاء الوطن العربي مبرماً، وغير معلل، ولا يخضع لأي من طرق الطعن أو الاستئناف أو التظلم، وأبدياً لا يسقط بالتقادم، ولا يتبدل بتبدل الظروف والأحوال، ومزاجياً لا يستند إلى أيٍّ من المعايير، وعشوائياً مثل المنايا من تصب تمته، ومن تخطئ يعمَّرْ فيهمْ.. وعلى الكتاب أن يسلك طريقاً

---

[9] من محاضرة ألقيت في حلقة البحث التي نظمها الصندوق الوقفي للثقافة والفكر في الكويت يوم 1998/4/20 .

محفوفاً بالمخاطر بين هذه الأنظمة الرقابية المتباينة، فإذا قدرت له النجاة من براثن الرقيب في بلده، فليجرب حظه مع أعين الرقباء الساهرة في البلدان الأخرى، فستفتح له أبواب وتغلق أبواب، فلا يدري كيف فتح هذا ولا كيف أغلق ذاك.. ويبدأ تجربة حبس الأنفاس وهو ينتقل متوارياً في حقيبة مسافر، مثل أي متهم مريب يكاد يقول خذوني.. فربما أخذ بجريرة عنوانه، وربما أخذ بجريرة اسم مؤلفه، وربما أخذ بجريرة اسم ناشره، وربما ضبط متلبساً بجريمة رسم حدود متنازع عليها بين بلدين، أو إطلاق اسم على وادٍ أو جبل أو بحر أو خليج يقبله أحدهما ويرفضه الآخر.. وربما وربما.

لكن الأنفاس المفعمة بحب الاطلاع، والتواقة إلى ممارسة حقها في القراءة الحرة دون وصاية، تزداد رغبة وقوة وتطلعاً، كلما أمعنْتَ في حبسها، شأن المياه الجارفة تبحث عن منفذٍ لها عبر السدود مهما أحكمتها في وجهها، فإما أن تعلوها أو تلتف من حولها أو تحطمها ماضية في أرض الله بلا سدود ولا عوائق.

وحب الاطلاع طاقة زوَّد اللـه تعـالى الإنسـان بهـا وسيلة إلى تحصيل المعارف وتنميتها، إذا أنت منعته من تفريغها ازداد أوارها، حتى قيل إن كل ممنوع مرغـوب، وكل محجوب مطلوب..

وفطن لـذلك بعـض العـارفين فاسـتخدموه وسـيلة للترويج وأطلقوا شـائعات المنـع لـبعض كتـبهم، فـما إن يتهامس الناس بأن كتاباً سوف يسحب من الأسـواق، أو أن قـراراً بمنعـه قـد يصـدر، حتـى يتسـابقوا لاقتنائـه، ويتفننوا في الاحتيال للحصـول عليـه، بـل إن دوراً بـارزة للنشر قد اتخذت (المنـع) شـعاراً لهـا، ضـمنته إعلاناتهـا ومطبوعاتهـا في عبـارات تثـير فضـول القـارئ، وتظهرهـا بمظهر المتحدي المستنير: «خـير جلـيس كتـاب مصـادر.. خـارج الرقابـة داخـل الثقافـة.. مواطنـون في جمهوريـة الكتابـة لا رعايـا في دولـة الرقابـة.. مـع إبـداع الكاتـب وحرية الكتاب.. كاتب بـلا قيـد، قـارئ بـلا قيـد.. كتـب تقول لا في عصر نعم».

ومن عجب أن أنظمة الرقابة إنما تفرض وصايتها على القارئ بحجة حمايته من الانحرافات الفكرية والحرص على توفير أمنه الثقافي، وهي بذلك تتعامل مع القارئ بوصفه قاصراً غراً عاجزاً عن تمييز الحق من الباطل، والرشد من الغي، والهدى من الضلال.. فهل كان الرقيب (الوصي) أبعد نظراً، وأحد بصراً، وأنضج فكراً من القارئ (القاصر)؟!وهل كانت أنظمة الرقابة تتوخى أمن القارئ الثقافي، أم أمنها السياسي؟

لقد صاغت من اتجاهها الفكري الأحادي قالباً أرادت أن تحبس فيه العقول، وأقامت حول أعين الناس حواجز تمنعها من النظر في غير اتجاهها الواحد، وصاحت بالناس كما صاح فرعون من قبل: {مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: 29/40] ، فماذا كانت النتيجة؟! وما كان الحصاد؟!

لنستنطق تجاربنا القريبة جداً فقد كان الكتاب حتى أواسط القرن العشرين، حراً؛ يصدر بلا رقابة، ويتحرك

بلا قيد، ويُقرأ بـلا وصـاية.. فـازدهرت بحريتـه الحركـة الثقافيـة، واحتـدمت المعـارك الأدبيـة، ومـارت القـرائح بالإبداع، وسطعت نجوم في الأدب والفكر؛ فكان العقـاد والمازني والرافعـي وطـه حسـين والزيـات والطنطـاوي... وشهد المجتمـع قارئـاً يبحـث عـن كتـاب. - ثـم أخـذت الرقابـات والوصـايات الفكريـة تظهـر عـلى السـاحة العربية، وتبتكر أساليب الحجر، إمعاناً منهـا في الحفـاظ عـلى ثقافـة الجيـل، فأسـهمت في وأد الإبـداع، وتجميـد حركة الأفكـار، وركـود معـارك النقـد، وبركودهـا ذبلـت أزهار الثقافة، وكفت نجوم الأدب عن التألق، وها نحـن أولاء أصــبحنا في مطــالع قــرن جديــد مــوّار بالأفكــار والتحولات؛ نشهد في مجتمعاتنا العربية كتاباً يبحث عن قارئ.

ليس في ذلك شيء مـن الغرابـة فبارقـة الحقيقـة لا تنقدح إلا بتصادم الأفكار، وثقافة الاتجاه الواحد عاجزة عن التكاثر والنماء، ومـا لهـا مـن مـآل غـير الشـيخوخة والفناء.

ولم تكن الأنظمة العلمانيـة التـي تـدعي (التنـوير) أقل تشدداً في نبذ الفكر المخـالف ومنـع الكتـاب الآخـر من الأنظمة المتدينة.

وهـب أن مجتمعنـا اشـترك في الوصـاية عليـه، في وقت واحد، تياران فكريان مختلفان؛ علـماني وإسـلامي، كل منهما يرفض فكر الآخـر، ويـرى فيـه الشر المسـتطير والضلال المبين، فماذا يمكن لهذا المجتمع أن يقرأ؟!

حين اختار اللـه سبحانه وتعالى هذه الأمـة لحمـل رسالته الربانيـة الخاتمـة إلى البشريـة، كـان النـداء الأول الذي وجهـه إليهـا: {اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الَّـذِي خَلَـقَ (1)} [العلق: 1/96] . فكـان ذلـك إيـذاناً بأولويـة القـراءة في شروط النهضة والتحضر. لكن الـوحي الإلهـي لم يكتـف بتوجيه نداء {اقْرَأْ} بل هو قد مهد السبيل لبناء مجتمع قـارئ مؤهـل لحمـل الرسـالة، فحـرر الإنسـان مـن كـل أشكال الوصاية؛ آبائية كانت أم دينية أم سياسية:

{وَكَذَلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَـةٍ مِـنْ نَـذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَـلَى آثـارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ} [الزخرف: 23/43-24] .

{إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللـهِ} [التوبة: 34/9] .

{وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (67) } [الأحزاب: 67/33] . وحدد للرسل مهمتهم {وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (17)} [يس: 17/36] . وحذرهم من الإكراه في الدين {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: 256/2] ، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: 99/10] .

ثم إن القرآن الكريم - بعد أن حرر الإنسان من كل أشكال الوصاية والحجر والإكراه - منحه الثقة الكبيرة بعقله: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *} [الملك: 10/67] ، ووضع له قانون الزبد مصفاةً لتنقية الأفكار ونفي خبثها {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [الرعد: 17/13] .

وإذا كان لي من عذر في إطالتي الحديث عن مشكلة الرقابة، فهو أني أنظر إليها بوصفها صداً عن السبيل

الذي اختطه الله تعالى لعباده كي يسيروا في مدارج الحضارة، وجوراً على حق الإنسان في الاطلاع والمعرفة، وعاراً لا يليق بإنسان عصر المعلومات والاتصالات أن يتلبس به.. وأنا أتطلع بشوق وحرقة إلى اليوم الذي تتحرر فيه أمتي من هذا العار، وأنا ضمين لها أن أمنها الثقافي سيكون مستتباً ولن يصيبه مكروه، بل سيكون أكثر ازدهاراً وحيويةً وبهاءً، إلا إذا كان مفهومنا للأمن الثقافي يقوم على الاكتفاء الذاتي بما نملكه من أفكار، وتوفير الصمت الكافي من حولها مخافة أن يعتريها شيء من القلق، وتجميدها حتى لا تتعفن، ثم تحنيطها كي تحافظ على شكلها ومظهرها.

إنني لعلى يقين من أن منع الرأي الآخر من التعبير عن نفسه، دليل فاضح على إفلاس فكري لدى الطرف المانع، وعجز عن مقارعة الحجة بالحجة، وعيّ عن البيان.

كما أنني على يقين من أن قرارات المنع الصادرة عن أجهزة الرقابة قد أصبحت عديمة الجدوى أمام التطور المذهل لتقنيات الاتصال ووسائل النسخ المباشر أو المهتوف،

والبــث الفضــائي الــذي اخــترق الحــدود، وتجــاوز الحواجز.

وإن إطلاق حريـة التعبـير وإلغـاء الرقابـة وربطهـا بالقانون والقضاء لن يضير الأنظمة السياسية والتيـارات الفكريـة، ولـن يصـيبها بـأي سـوء أو مكـروه، ولسـوف يسهم في الكشف عن الحق وزيـف الباطـل، ويكـون في مصلحة الفكر والثقافة والكتاب، وعندي على ذلك ألـف دليل.



من غرابيل القراءة [10]

يعد العالم العربي أكثر من 200 مليون نسمة، يفترض - إذا أخذنا بالقول المأثور (طلب العلم من المهد إلى اللحد) - أنهم جميعاً يقرؤون، وأنهم على اختلاف أعمارهم بحاجة إلى الكتاب.

ووراء العالم العربي، عالم إسلامي تجاوز عدده المليار ونصف المليار نسمة يفترض أن يتداولوا الكتاب العربي، ولو بنسبة ضئيلة تلبي حاجاتهم الدينية، لفهم القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى قرآناً عربياً، وفهم كلِّ ما دار حوله من تفسير وأحكام بلغة العرب.

---

[10] من محاضرة ألقيت في المركز الثقافي العربي بدمشق 1995/9/16 .

وخلف العالم العربي والإسلامي يقوم عالمٌ متعطش إلى المعرفة، مولعٌ بجمع المعلومات وتصنيفها، وتحليلها وتركيبها، إثراءً لمخزونه المعرفي من جهة، ولكي يعرف كيف يتعامل مع الآخرين من جهة أخرى، فهو يحتاج إلى الكتاب العربي لتزويد مكتباته، ومراكزه العلمية، ومؤسساته الاستشراقية.

لهؤلاء جميعاً، يطبع الناشر العربي من أكثر عناوينه رواجاً، كمية لا تتجاوز خمسة آلاف نسخة في أحسن الظروف، أما عناوينه العادية، فقد ينخفض عدد النسخ المطبوعة منها إلى ألف أو أقل.

أية أرضية رخوة، تسيخ فيها أقدام الناشرين؟!

وأي نوع من الجراثيم، ذاك الذي تسلط على هذا العدد الضخم من (القراء المفترضين)، فحجب أبصارهم عن القراءة، وقلص عددهم من مئات الملايين، إلى بضع مئات؟!

وأية حواجز شاهقة، قلصت من الرقعة الجغرافية الواسعة التي كان ينبغي أن يتحرك خلالها الكتاب؟ بل أية غرابيل، تلك التي سمحت بهروب كل هذه الأعداد الضخمة من القراء، ولم تبق إلا على حفنة يسيرة منهم، امتنعوا عن الانصياع إلى دفق التيار، وتشبثوا بحبال النجاة، ثم اندفعوا - مثل سمك السلمون - إلى الأعالي يغالبون التيار، ليحفظوا للقراء نبض الحياة، غير عابئين بالقاعدين عن واجب القراءة الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف؟

أحد هذه الغرابيل يمسك به في طول العالم العربي وعرضه رقيب في الداخل، وعتيد على الحدود، كلاهما مشفق على ثقافة البقية الباقية من القراء التي نجت من غربالي الأُمية والأُمية اللاحقة.

لا شك أنها النخبة المثقفة الواعية، وعلى المجتمع أن يعنى بها أيما عناية، وأن يحوطها برعايته، وأن يوفر لها الثقافة الملائمة، وأن يحميها من كل أصناف

الاختراق الفكري، والتلوث الثقافي، وأن يصون وقتها من الضياع في قراءة منشورات عجفاء مهزولة، وأن يبعد عن بصرها كل ما فات أوانه من الثقافات البالية، والأفكار المهترئة، وكل ما ثبت ضرره على المجتمع والدين والأخلاق.. موكلاً أمر ذلك كله إلى رقيب وعتيد.

ويبدأ رقيب عمله بأن يعزل، بكل رفق وعناية فائقة، هذه الطليعة المثقفة، التي منعتها رغبتها الجامحة في القراءة، من السقوط عبر ثقوب غربالي الأُمية والأُمية اللاحقة، ويضع في غرباله ما يتجمع لديه، أو يقع بصره عليه من كتب في مختلف حقول المعرفة: تراثية أو معاصرة، علميةٍ أو أدبية، فكريةٍ أو ترفيهية، مطبوعةٍ أو في طريقها إلى الطبع، ويبدأ بغربلتها ونخلها، ثم لا يفوته أن ينقب في ثنايا كتابٍ لسيبويه، أو شرحٍ لابن عقيل، أو نظرية لأنشتاين، أو فرضية لفيثاغورث، لعله يجد في بعض صفحاتها مسألة فيها نظر.

حتى إذا اطمأن إلى دقة الفحص، وانقضاء الوقت الكافي للتأمل والتنقيب بكل أناة وحذر، أصدر قوائمه البيضاء بما يمكن أن يسمح به للقارئ الجائع المنتظر المتشوق، وهو مطمئن إلى نوع الثقافة التي دفع بها إليه، مرتاح إلى أنه أشبع نهم قارئه بما رأى أنه سينفعه، وأبعد عنه كثيراً من الثقافات العفنة التي ستفسد عليه عقله وفكره، لا يبالي طول المدة، وضآلة الحجم، فطول الانتظار يزيد النهم، وقلة الزاد تبعث على الرشاقة، وتمنع الترهل الثقافي.

ثم يصدر قوائمه السوداء بالكتب الممنوعة التي حمى قارئه من الاطلاع عليها، والتأثر بها، ويدفع بها إلى عتيد، يبحث عنها في دكاكين الوراقين، وفي حقائب المسافرين، خشية أن تتسرب في غفلة من حراس الثقافة وأعين الرقباء.

ورقيبٌ غالباً ما يكون على درجة من الثقافة والتأهيل العلمي، أما عتيدٌ فغالباً ما تنقصه المؤهلات العلمية،

سوى ما تتطلبه العناية بهذه القوائم السوداء.. ويا لهـا من ساعة حرجة، تلك التي تقع فيهـا عينـه عـلى كتـاب متسللاً في حقيبة مسافر.

والأصل عند عتيد في كل كتاب أنه ممنوع، وفي كل إنسان أنه قاصر، فـإذا وقعـت عينـه في حقيبتـك، وبـين حوائجك على كتاب، طالبك رأسـاً بموافقة رقيبٍ الموكـل بالوصــاية عليــك، و الخــوف عــلى ثقافتــك أن تزيــغ وتنحرف.

كتب أحدهم ذات مرة يقول: يحتاج المرء كي ينتقل من بلـد إلى آخـر أن يراجـع دائـرة الهجـرة والجـوازات، وسفارة بلد المقصد في بلده، في حين يحتـاج الكتـاب، كي ينتقل من بلد إلى آخر، إلى مراجعة أحـد عشر مركـزاً في البلدين.. قد يكون في هذا الكلام بعض المبالغة ولكن..

مهلاً أخي رقيب! إنني - مـع كـل تقـديري لدوافعك النبيلة من أجل صـيانة ثقافـة الأمـة مــن العبــث والضــياع والانحــراف - أريــد أن أهمس في أذنك همساتٍ ربما يصلح بعضها أن

يكون جسراً نتواصل عبره، ونقطة تفاهم ننطلق منها إلى تحقيق غاياتك الشريفة دون إضرار بمستقبل الثقافة والإبداع:

1- ليس القارئ قاصراً، ينبغي الحجر عليه، بل هو راشد وهبه اللـه عقلاً سوف يسأله عن استخدامه أو تعطيله.

2- إن الاطلاع على ثمرات الأفكار المحلية والعالمية حق من حقوق القارئ، لا يجوز حرمانه منه، بحجة الوصاية عليه.

3- وقرارات المنع، أصبحت وسيلة من وسائل ترويج الكتاب، استخدمها بعض المؤلفين والناشرين الأذكياء، انطلاقاً مما استقر في فطرة الإنسان من حب الاطلاع على كل ممنوع، والرغبة في الكشف عن كل محجوب.

4- ثم إن قرارات المنع، قد أصبحت عديمة الجدوى، أمام التطور المذهل لتقنيات الاتصال، ووسائل النسخ المباشر أو المهتوف، والبث الفضائي الذي

اخترق كل الحدود، وتجاوز كل أنظمة الحجر والوصاية، ودخل إلى كل بيت، وربما سيدخل إلى كل جيب، من يدري؟!

5- وما تراه أنت سيئة في كتاب توجب منعه، قد يراه غيرك حسنة فيه توجب قراءته، فلك رأي وللآخر رأي لا يجوز لك أن تلغيه.

6- الكتاب يرد عليه بكتاب، والفكرة تصححها الفكرة: لندع الأفكار تتصارع، فإن الحقيقة لا تنقدح إلا بتصادم الأفكار.

7- إن ثقافة الاتجاه الواحد، غير قابلة للنماء، بل إن مآلها العقم والفناء، فصيرورة الإنسان إلى جنة الفكرة الواحدة، لا تعني غير دمار الكون، وقيام الساعة، ونهاية التاريخ {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ} [البقرة: 251/2] .

8- وهفوة في كتاب لا تمحو كل حسناته، وزلةٌ من مؤلف لا تهوي به إلى قعر جهنم، فلقد علمنا الله

تعالى كيف نتقبل من الناس {أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ} [الأحقاف: 16/46] ، {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 114/11] .

9- وتراثنا زاخر بالمناظرات، والمناقشات، بين أهل المذاهب والآراء المتباينة، اتسع لها صدرهم، وشُحذت لها هممهم، فكان هذا العطاء الواسع الكبير.

10- والحوار القرآني لم يضق ذرعاً بأعتى المخالفين، كي يعلِّمَنا كيف نستفيد من الاختلاف وتعدد الآراء، وكيف ندخل الحوار دون مسلمات مسبقة:

{وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} [سبأ: 24/34] .

{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) } [الزخرف: 81/43] .

11- أليس ذلك كله بكافٍ أخي الرقيب، أن نقلص رقابتنا إلى أدنى حدّ، ونحصرها في أضيق نطاق،

يحفـظ للمجتمـع نظامـه ووحدتـه وقيمـه الدينيـة والأخلاقيـة، وفـق معـايير واضـحة، لا تـدع مجـالاً للاجتهادات العشوائية، والقرارات المزاجية؟!

12 - إنَّ رقابة تحافظ على الهدوء والنَّوْم، وتحدد المسار، وتلغـي التعـدد، وتضـيِّق القوالـب، وتمنـع انطـلاق الأفكار، سوف تؤدي بالثقافة إلى العقم والشـيخوخة والفناء.

وحريةً تتطاول على القـيم والمقدسـات، وتسـتخدم التشـهير والابتـزاز والتسـلط والإرهـاب الفكـري، سـوف تئدان الإبداع، وتعيقان حركة الثقافة.

والرقابة، إلى أن يتشكل وعي القارئ، وينمو حسـه النقدي، يمكن أن تكون رقابة بين بين، توازن بين عوامـل الهدم والبناء، وتحترم التعدد والرأي الآخر، وفق معـايير واضحة، ومن لي بمثل هذه الرقابة؟!

لقد ذهب غربال الرقابـات المتشـددة، بـأكثر مـن ربع العناوين المنشورة في العـالم العـربي عـلى ضـآلتها،

فما يسمح به هنا يمنع هناك، وما يقرؤه الإنسان العربي في بلد يحرم من قراءته في بلد آخر، فماذا بعد؟!!



القرآن وحرية التعبير[11]

لقد حلّق القرآن الكريم- بحصانته وقدسيته - فوق كل أنواع الرقابات الدينية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والآبائية.. ولو أنه قُدم للجهات الرقابية على أنه نص بشري، لأتت أقلامها على كثير من نصوصه؛ حذفاً وتعديلاً.

لن تحتمل الرقابة الدينية نصاً يقول: { إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ }. ولا نصوصاً تتهم الأنبياء بالجنون والكذب والسحر والافتراء، وتصف الكتب التي جاؤوا بها بالإفك المبين، وأساطير الأولين،

[11] 7/ 12/ 2010 .

وأضغاث الأحلام، وتقول عن الذات الإلهية: اتخذ الرحمن ولداً، ويد الله مغلولة، والله فقير ونحن أغنياء.

ولن تحتمل الرقابة الأخلاقية قصة امرأة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك، وهمت به وهمَّ بها، واستبقا الباب وقدَّت قميصه من دبر.

كما لن تحتمل الرقابة السياسية وصف الحاكم بالطغيان والتأله والفساد، والرقابة الاجتماعية وصف الآباء بالضلالة والتقليد وفساد العقول، وتفوق الأبناء عليهم بالعلم والمعرفة والتقدم.

لا أجد في سجل التاريخ البشري نظاماً حرر عقل الإنسان من كل قيود الحجر، والتبعية، وأحادية الفكر، والهيمنة، والإكراه، والتفرد بالرأي، والتقليد، والماضوية، وتقديس الآباء، كالذي أجده في القرآن..

تكاد لا تجد سورة في القرآن تخلو من دعوة الإنسان

إلى إعمال عقله، والتمرد على كل محاولات تقييده، وإرغامه على الانحباس في القماقم والقوالب الجاهزة؛ مسبقة الصنع.

لقد أهبطه الخالق إلى الأرض؛ خالي الذهن من كل مفردات المعرفة الشاملة التي أذاقه لذة الإحاطة بها في السماء، وزوده بعقل قادرٍ على المحاكمة والاستقراء واستيلاد الأفكار من رحم التجربة و الخطأ، وتحداه- إن هو أعمل فكره- أن يجعله خليفته في الأرض، وأن يسخر له الكون كله ويطلق يده فيه، فقبل التحدي، مصراً- هذه المرة- على أن يذوق لذة تحصيل المعرفة بجهده؛ يراكمها لبنة فوق لبنة، يجتاز لها عصور البدايات المضنية حتى يبلغ بها عصر المعرفة الراهن؛ المنفتح على آفاق بعيدة بلا حدود..

وفي عصر المعرفة، وما يحفل به من وسائل الاتصال المتطورة.. يستعيد الفكر الإنساني حريته التي فطره الله عليها، وتنطلق طاقاته الإبداعية من إسارها، فلا يبقى

للرقابة معنى ولا جدوى. ويتحقق وعد الله: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: 53/41] .

1- حرية التعبير من جانب واحد؛ منهج الأنبياء

من قوانين التاريخ المستنبطة من تجارب الاجتماع البشري، أن حرية التعبير تبلغ مداها في مراحل نهوض الأمم، وتتقلص الحرية كلما تعبت أمةٌ من أعباء حضارتها، فأخلدت إلى الراحة، قانعةً بحصيلتها الفكرية، متقوقعة عليها، تحوم حولها.. تكررها وتعيد إنتاجها.. تألفها، تقدسها.. تقرأ عليها التعاويذ.. تحيطها بحرس شديد.. ترى فيها الحقيقة التي لا ريب فيها.. وترى كل خروج عليها مساساً بالمقدسات، وخروجاً عن المألوف..

يصف لنا القرآن - الذي اشتق اسمه من القراءة، واستهل بها رسالته، مطلقاً من غار حراء صيحته المدوية

{اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الَّـذِي خَلَـقَ (1) } [العلـق: 1/96] - مرحلة النهوض هـذه بكـل مـا يفـور بـه المجتمـع مـن جدال، وما يحتدم فيه من نقاش، وما ينتج عن ذلك من صراع بـين الشرائـح الاجتماعيـة الغافيـة عـلى أنغـام تقاليـدها وعاداتهـا، و بـين طلائـع التغيـير والتجديـد؛ تحاول إيقاظ النائمين، وتنبيه الغافلين.

وتتكـرر- عـلى مـدى التـاريخ الحضـاري الإنسـاني- معركة القديم والجديد، والمسـتنكر والمـألوف.. المعركـة التـي خاضـها المصـلحون كلهـم وفي طليعـتهم الأنبيـاء، والتي يصورها لنا القرآن الكريم في سورة إبراهيم صورة شاملة (بانورامية): {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللـهُ جـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنـاتِ فَـرَدُّوا أَيْـدِيَهُمْ فِي أَفْـواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونَنا إِلَيْـهِ مُرِيـبٍ (9) قالَـتْ رُسُـلُهُمْ أَفِي اللــهِ شَـكٌّ فـاطِرِ السَّـماواتِ وَالأَرْضِ يَـدْعُوكُمْ لِيَغْفِـرَ لَكُـمْ مِـنْ ذُنُـوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَـمًّى قـالُوا إِنْ أَنْـتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنـا

تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (10) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَما لَنا أَلاّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (13) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ (14) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ} [إبراهيم: 14/9-14] .

ثم يعود فيصورها لنا مفصلة في سورة الشعراء ليحكي لنا معاناة كل نبي مع قومه.

فهذا موسى يواجه طغيان فرعون واستبداده السياسي بكل صلابة وإصرار، فيتهمه فرعون بالجنون، وينذره {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) } [الشعراء: 26/29] .

ويصر موسى على رفض ألوهية فرعون، والإقرار بالألوهية لرب العالمين، فتعلو كلمة الحق {وَأَنْجَيْنا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنا الآخَرِينَ(66) } [الشعراء: 26/65-66] .

وهذا إبراهيم يشتبك مع قومه في حوار طويل، منتقداً وثنيتهم؛ في صورة درامية رائعة، لا بد من عرضها كما وردت في سورة الشعراء، دون أي تعليق قد يشوه جلالها: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (70) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (71) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعالَمِينَ (77) } [الشعراء: 26/69-77] .

وهذا نوح ينكر على قومه طبقيتهم وتمييزهم واستكبارهم {إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللـهَ وَأَطِيعُونِ (110) قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (111) قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَما أَنا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) } [الشعراء: 26/106-116] .

وتتطاول عاد في البنيان، وتمعن في إنشاء المصانع، وإنتاج الأسلحة والذخائر، وتطمئن إلى قوتها العسكرية، متجاهلة كل القيم الأخلاقية وحقوق الإنسان، فينبري لها هود مرسلاً إليها يذكرها؛ وتتابع سورة الشعراء سرد قصة صراعه معها {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللـهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هَذا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (137) وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) } [الشعراء: 26/128-138] .

وتكب ثمود على مزارعها وعمرانها، وينسيها إسرافها وترفها واجباتها في إنهاض المجتمع ورعاية حقوق المستضعفين، وينتشر فيها الفساد، فتسرد لنا سورة الشعراء قصة كفاح رسولها صالح معها: {أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146) فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (152) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (154) } [الشعراء: 26/146-154] .

وينتشر الفساد الأخلاقي والشذوذ الجنسي في قوم لوط، فيخرجون بالمتعة عن الفطرة {أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (166) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ} [الشعراء: 26/165-168] .

ويختل الميزان في أصحاب الأيكة فيكيلون بمكيالين، فينـاديهم شـعيب: {أَوْفُـوا الْكَيْـلَ وَلا تَكُونُـوا مِـنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُـوا بِالْقِسْـطاسِ الْمُسْـتَقِيمِ (182) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (184) قـالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَما أَنْـتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنـا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قـالَ رَبِّي أَعْلَـمُ بِما تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّـةِ إِنَّـهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـةً وَما كـانَ أَكْـثَرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّـكَ لَهُـوَ الْعَزِيـزُ الـرَّحِيمُ (191) } [الشعراء: 26/181-191] .

وتأتي الرسالة الخاتمة واضعة تجارب الأمم السـالفة كلها بين يدي الإنسانية لتتعظ بها، وتتجنـب الوقـوع في أخطائها.

لكن الإنسان ما يلبث أن يكرر أخطاءه، فها هي ذي الحضارة الغربية تتردى في حضيض أخلاقـي يشـتمل عـلى

سـوءات الأمـم السـالفة كلهـا، منـذراً بتحـولٍ تـاريخي جديد، ينقل راية الحضارة الإنسانية إلى أيد أكـثر نظافـة يأتمنها عليها، مؤكداً أن عين التاريخ لا تزال يقظة تراقب عن كثب، وأن رقابتها قائمة على قانون المنفعة (القرآني) الـذي يقـوم عـلى حريـة الإنسـان في التعبـير عـن رأيـه: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللـهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَـدُ فَيَـذْهَبُ جُفَـاءً وَأَمَّـا مَـا يَنْفَـعُ النَّـاسَ فَيَمْكُـثُ فِي الأَرْضِ كَـذَلِكَ يَضْرِبُ اللـهُ الأَمْثَالَ} [الرعد: 17/13] .

2- لا إكراه في الدين

لقـد اسـتخدم القـرآن في هـذه الجملـة الإخباريـة الجامعة؛ (لا) النافية للجنس ولم يسـتخدم (لا) الناهيـة في جملة إنشائية، ليؤكد لنـا اسـتحالة وقـوع الإكـراه؛ في الـدين خاصـة وفي الـرأي عامـة؛ إذ الـرأي والـدين شـأن داخلي، يتكوَّن في ضمير الإنسان، لا يملك منـه فكاكـاً؛ إلا أن يتراءى له رأي آخر أوضـح دلـيلاً، وأعـم نفعـاً، وأكـثر إقناعاً، فيتركه ليخلي مكانه للرأي الجديد.

{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256) } [البقرة: 256/2] ، وهل العروة الوثقى إلا ذلك الإيمان الذي يستقر في ضمير الإنسان فيوجه قناعاته ويرسم له منهج حياته، ويحدد له سلوكه؟!

وتتوالى آيات القرآن، محددة للرسول مهمته: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) } [المائدة: 99/5] . والبلاغ يجب أن يكون مبيناً: {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} [النحل: 35/16] . {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (82) } [النحل: 82/16] ، و {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (54) } [النور: 54/24] ، و {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (18) } [العنكبوت: 29/ 18] ، و {وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ

الْمُبِينُ (17) } [يس: 17/36] ، و {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) } [التغابن: 12/64] .

وتظل مهمة الرسول محصورة بالبلاغ المبين وإقامة الحجة، ولا علاقة للرسول بردة الفعل عند المتلقي، الذي قد يكون مكابراً أو جاحداً أو منافقاً {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: 40/13] . {وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (7) } [عبس: 7/80] . {إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (23) } [فاطر: 23/35] ، {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) } [الغاشية: 22/88] ، {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق: 45/50] ، {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام: 107/6] .

وفي سؤال استنكاري موجه إلى الرسول، يقول الله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: 99/10] ، وسؤال استنكاري آخر يتوجه به نوح إلى قومه: {ياقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} [هود: 28/11] .

وتأكيداً على استحالة الإكراه في الدين يستثني الله تعالى من غضبه المكره على الكفر بعد الإيمان {إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل: 106/16]. وعلى الرغم من الرخصة الممنوحة للمؤمن كي ينطق بكلمة الكفر تحت وطأة التعذيب، فقد آثرت سمية الموت على أن تنطق بها، وتحمَّل بلال صنوف العذاب، وظل يشير بأصبعه (أحد، أحد) عندما جف ريقه وعجز لسانه عن النطق بكلمة التوحيد، ليعلِّم أحرار العالم دروساً في الثبات على المبدأ والصبر على الأذى، والإصرار على ممارسة حقه في حرية التعبير.

3- من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: 29/18] .

يتكرر التنويه بحرية الإنسان في الرأي الذي يقتنـع به وفي التعبير عنه في القرآن الكريم، في أكثر مـن مئتـين من آياتـه؛ مؤكـداً مسـؤولية الإنسـان عـن قـراره الـذي يتخذه تجاه خالقه وحده، ولا سلطان لأحد عليـه غـيره. {وَنَفْسٍ وَما سَوّاها (7) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها (9) وَقَدْ خـابَ مَـنْ دَسّـاها} [الشـمس: 10-7/91] .

ومسؤولية الإنسان أمام اللـه عن رأيه وعن سلوكه المبني عليه، إنما يكون الحساب عليها في الآخرة، ومرتكز هذه المسؤولية تزويد اللـه له بكل أدوات المعرفة التي يستطيع بهـا تمييـز الحـق مـن الباطـل، والمصـلحة مـن المفسدة، وتحذيره له من تنكُّـب طريـق الحـق والعلـم واتباع طريق الهوى والضلال: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْـمٌ إِنَّ السَّـمْعَ وَالْـبَصَرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولَئِـكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْؤُولاً (36) } [الإسراء: 36/17] .

أما في الحياة الدنيا، فقد أطلق الخالق له الحرية كاملة لاعتنـاق الـرأي الـذي يختـاره، وجعلهـا ميـداناً

لاختبار مدى إعماله لعقله، وقدرته على اقتحام العقبة، والسمو فوق إغراءات الشيطان له بالإخلاد إلى الأرض: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) } [الملك: 2/67] .

ليس في القرآن آية تأمر بقتل المرتدّ عن دينه، فقد ورد في القرآن بحق المرتد {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) } [المائدة: 54/5] .

{وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [البقرة: 217/2] .

إنما ورد في الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه» [رواه البخاري والترمذي وأبو داود]** ، وهو حديث يندرج في

زمرة قوانين الطوارئ.. أطلقه الرسول ﷺ تحذيراً لليهود الذين حاولوا فتنة المؤمنين عن دينهم، فيما ذكره القرآن عنهم {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) } [آل عمران: 72/3] .

فكف اليهود عن مكرهم، ولم يطبق قانون الطوارئ هذا على أحد منهم.

أما على صعيد التطبيق الفعلي، فإننا نقع على حادثة ذات مغزى كبير:

وقد ورد في الصحيحين قول الرسول ﷺ عن الأعرابي الذي استقاله بيعته على الإسلام فخرج: "إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها".

ولم يرد عن الرسول ﷺ في حياته أنه قتل مرتداً، بل إنه في صلح الحديبية وافق على " أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه".

4- كفر الرأي وكفر العدوان

{قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 123/9] .

{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 36/9] .

{قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29) } [التوبة: 29/9] .

كل ما ورد في القرآن عن قتال الكفار، إنما يراد به كفر العدوان وليس كفر الرأي، بدليل قوله تعالى: {لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ

وَظَـاهَرُوا عَـلَى إِخْـراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّـوْهُمْ وَمَـنْ يَتَـوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: 60/8-9] .

حتى كفر العدوان، قد وضع القرآن لقتاله ضـوابط وقيوداً، تحدده بحسب مسـتوى العـدوان، فبعـد حالـة التعـايش والـود المتبـادل، ربمـا تطـرأ حالـة مـن التنـافر والتخاصم تشوب العلاقة بين المسلم وغير المسـلم، فهـو هنا مـأمور ألاّ يبـدأ بالعـدوان {وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللـهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) } [البقـرة: 190/2] . {وَلاَ تَعْتَـدُوا إِنَّ اللـهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [المائدة: 87/5] .

فإن بدأ غير المسـلم بالعدوان فما على المسـلم إلا أن يرد العدوان بمثله ولا يتجـاوزه {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَـيْكُمْ فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَى عَلَـيْكُمْ وَاتَّقُـوا اللـهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللـهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: 194/2] .

فإذا ثاب الكافر إلى رشده وطلب السلم فعلى المسلم أن يستجيب لطلبه. حتى لو اشتم منه رائحة الخدعة، فإن

عليه أن يقبل السلم مع الحذر {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللـهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللـهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) } [الأنفال: 8/61-62] .

وفي مرتبة خامسة تأتي حالة التوافق على السلم وإبرام المعاهدات التي يكون على المسلم فيها الالتزام الكامل بما عاهد عليه: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللـهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللـهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللـهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) } [النحل: 16/91] .

ثم تأتي في مرحلة سادسة من تطور العدوان حالة إنهاء المعاهدات ونقضها، فعلى المسلم أن يظل ملتزماً بمعاهداته ما دام الطرف الآخر ملتزماً بها.

{إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) } [التوبة: 4/9] .

{فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 7/9] .

ولا يجوز للمسلم نقض معاهدة حتى لو كان ذلك تلبية لطلب من إخوان له في الدين {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: 72/8] .

5- الكفر اختلاف في الرأي

الكفر في القرآن لا يعدو أن يكون اختلافاً في الرأي لا يفسد الود ما دام التعبير عنه مقتصراً على اللسان لا يتجاوزه إلى اليد. فهو كفر متبادل: {قُلْ يا أَيُّها الْكافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ (4) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) } [الكافرون: 109/1-6] .

وهو كفر لا يفسد المواطنة والعيش المشترك، قامت

على أساسه وثيقة المدينة بين المسلمين واليهود؛ أول وثيقة ترسي مبدأ حرية الاعتقاد في التاريخ؛ لم تستوعبها ثقافة اليهود الأحادية المستقرة في ضمائرهم، فسرعان ما تآمروا عليها، وانسلخوا منها.

وقامت عليه العهدة العمرية معترفة للنصارى بحقوقهم وكنائسهم وصلبانهم وحارسة لها.. ما زالت هذه العهدة تشكل أساس المواطنة وروح العلاقة الوثيقة بين المسلمين والمسيحيين إلى اليوم، لم تستطع الحروب الصليبية الحاقدة، ولا الاحتلال الاستيطاني الصهيوني اجتثاثها..

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (82) } [المائدة: 82/5] .

إنما تكمن الفتنة في تجاوز التعبير عن الرأي اللسانَ إلى اليد، ولا تتولى اليد التعبير عن الرأي إلا عندما يفقد

اللسان حريته في التعبير. ولا تحقق الإنسانية تقدمها إلا في مناخ الحرية، ولا يتوالد الإرهاب ويفرخ إلا في أعشاش الإكراه وكمِّ الأفواه وغياب الحرية.

يكاد القرآن أن يكون أول من نبه إلى هذه الحقيقة: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) } [آل عمران: 64/3] .

وأرسى لهذه الحقيقة قواعدها، وزوَّدها بأدواتها؛ عبر اعترافه بالآخر وحقه في الاختلاف، وما يستتبعه ذلك من التعدد والحوار.

وأمر المسلمين في مكة بكف اليد مرسخاً قاعدة منع استخدام العنف في معارضة النظام السياسي الداخلي، واعتماد الكلمة وحدها في إدارة هذا الصراع. فالتزموا ذلك التزاماً صارماً لم يحيدوا عنه قيد أنملة.

6- التعدد والاختلاف

لم يحفل كتاب سماوي ولا أرضي بالتأكيد على التنوع والتعدد والاختلاف؛ وسيلةً للنمو والتطور والارتقاء، مثلما حفل القرآن الكريم.

فالاختلاف في القرآن هدف من أهداف الخلق: {وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } [هود: 11/118-119] .

والتدافع بين الناس وسيلة للنمو والإصلاح من دونه تفسد الحياة وتتفسخ: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللـهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللـهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: 2/251] .

{وَلَوْلاَ دَفْعُ اللـهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللـهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللـهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: 22/40] .

واختلاف الناس في الألسن والألوان آية من آيات الله

مثـل خــلق الســموات والأرض {وَمِــنْ آيَاتِــهِ خَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْـتِلاَفُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْـوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) } [الروم: 22/30] .

والتنـوع وسـيلة مــن وســائل التعـارف وتبـادل الخبـرات بين الأمم {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِـنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللـهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللــهَ عَلِـيمٌ خَبِـيرٌ (13) } [الحجـرات: 13/49] .

والوحدانية صـفة اختص اللــه تعـالى بهـا نفسـه، وجعل الازدواج والتضاد سمة من سمات الخلـق {وَمِـنْ كُــلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَــا زَوْجَــيْنِ لَعَلَّكُــمْ تَــذَكَّرُونَ (49) } [الذاريات: 49/51] ، و {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِـمَّا لاَ يَعْلَمُـونَ (36) } [يس: 36/36] .

7- حرية للتعبير بلا حدود

فها هي ذي النصوص القرآنية تضج بكل ما يذخر به المجتمع من آراء وأفكار، وما يثـور فيـه مـن جـدل

ونقاش، حول القيم الدينية ورسالات الأنبياء والحياة والموت ويوم القيامة؛ مما يصرح أو تشتمُّ منه رائحة الكفر والإنكار والتهجم حتى على الذات الإلهية.. نصوص يتلوها المسلم في صلاته، لو سمعها على لسان أحد من دون أن يفطن إلى أنها قرآن يتلى؛ لانخلع لها قلبه، ولو عرضت على الرقابة لانهالت عليها حذفاً وطمساً بقلمها الأحمر.. لعل هذه الصراحة في القرآن تكون تدريباً للعقل المسلم على قبول الآخر والحوار الهادئ الرصين معه بغية الوصول إلى الحقيقة.

لنستعرض معاً آياتٍ من القرآن تعرض لنا هذا الحراك الاجتماعي الذي تثيره دعوات الأنبياء؛ فهذا حوار عائلي ساخن بين ولد مستهتر ووالديه المشفقيْن {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (17) } [الأحقاف: 17/46] .

وهذه نماذج مما قيل في إنكار الآخرة ويوم القيامة:

{وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) } [السجدة: 10/32] . {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) } [سبأ: 35/34] . {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (24) } [الجاثية: 24/45] . {يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10) أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12) } [النازعات: 79/10-12]

.

ونماذج أخرى مما قيل في تكذيب الأنبياء وفي شتمهم: {وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) } [الحجر: 6/15] . {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (111)} [الشعراء: 111/26] . {قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) } [الشعراء: 136/26] . {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بِيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً} [القصص: 36/28] . {فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [غافر: 24/40] . {إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا

نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38)} [المؤمنون: 38/23] . {قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [الزخرف: 24/43] . {إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 91/6] . {أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) } [القمر: 25/54] .

لنتساءل: هل اختلف خطاب الكفر والإلحاد على مر الزمن؟، وهل سمعنا من ملحدي العصر شتماً للأنبياء وإنكاراً للقيامة والحساب واليوم الآخر أكثر مما أورده القرآن؟!

ولنفترض أن صحيفة نشرت بعض هذه النصوص في حق أحد الأنبياء على لسان إنسان ما غربي أو شرقي، ما الذي كان سيحدث؟! وهل قال سلمان رشدي في آياته الشيطانية قدحاً في الأنبياء أقذع من هذا الذي ذكره القرآن؟

لكن القرآن يدلنا على طريقة أخرى للتعامل مع مثل هذه الحالات أكثر جدوى وأعمق أثراً من إهدار دم سلمان رشدي.. إنها الحوار!!

8- القرآن والحوار

لم ترد مادة الحوار في القرآن إلا في آيتين في سورة الكهف {فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا} [الكهف: 34/18] ، {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (37) } [الكهف: 37/18] .

وآية في سورة المجادلة {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) } [المجادلة: 1/58] .

لكن المتدبر للقرآن يجد الحوار يستغرق معظم آياته؛ تكاد لا تجد سورة من سوره تخلو من الحوار:

فهو تارة حوار الإنسان مع الإنسان؛ بدءاً من الحوار بين ابني آدم { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قالَ لأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ

لِتَقْتُلَنِي ما أَنا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللـهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ وَذَلِكَ جَزاءُ الظّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ(30) } [المائدة: 5/27-30] .

وتارة حوار بين الأنبياء وأقوامهم {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللـهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللـهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللـهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) } [البقرة: 2/258] .

وتارة حوار بين اللـه وأنبيائه: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللـهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (109) } [المائدة: 5/109] .

وتارة حوار بين اللـه وإبليس {قالَ ما مَنَعَكَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قالَ

فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) } [الأعراف: 7/12-18] .

وتارة بين الله وملائكته: {وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (31) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) } [البقرة: 2/30-32] .

ويرسم لنا القرآن صور الحوار متدرجاً به:

من التخافت: {فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ (23) أَنْ لا يَدْخُلَنَّها الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) } [القلم: 68/23-24] .

إلى النجوى: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) } [طه: 62/20] .

إلى الإسرار: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} [التحريم: 3/66] .

إلى المحاجّة: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (80)} [الأنعام: 80/6] .

إلى الجدال: {قَالُوا يانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) } [هود: 32/11] .

إلى التخاصم يعرضه لنا في صورة مؤثرة يستدعيها من أحداث الآخرة {قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (60) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هَذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النّارِ (61) وَقالُوا ما لَنا لا نَرَى رِجالاً كُنّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرارِ

(62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ} [ص: 38/60-64] .

إلى الإعراض والقطيعة: {فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: 140/4] .

ويبين لنا القرآن ضرورة الحوار {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 165/4] .

ثم يضع لنا قواعده وآدابه:

{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125/16] .

{وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 108/6] .

ويأمرنا أن ندخل في الحوار من دون مسلمات مسبقة: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

(24) قُـلْ لا تُسْـأَلُونَ عَـمَّا أَجْرَمْنـا وَلا نُسْـأَلُ عَـمَّا تَعْمَلُونَ(25) } [سبأ: 34/24-25] .

وأن نحتكم للبراهين:

{قُـلْ هَـاتُوا بُرْهَـانَكُمْ إِنْ كُنْـتُمْ صَـادِقِينَ} [البقـرة: 111/2] .

{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) } [الزخرف: 81/43] .

{وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللـهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِـهِ فَإِنَّمَـا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ} [المؤمنون: 117/23] .



وبعد

فماذا كان نصيب التوجيه القرآني من التطبيق في حياتنا؟! واقعنا الراهن- سواء على الصعيد الداخلي (البيني) أو على الصعيد الخارجي- يشير إلى تطبيق عملي متناقضٍ ومتنافٍ تماماً مع كل النصوص القرآنية المنوه بها، وهو [المنوه به] غيض من فيض. فالأحادية والانقسام والتشرذم والاختصام والاقتتال واحتكار الحقائق وفرض الرأي الواحد بالقوة- على الصعيد الفكري- هو السائد في علاقاتنا.

وكل ذلك وضع طبيعي يمكن تفهمه تماماً إذا ربطناه بالمرحلة الحضارية التي نجتازها، وهي مرحلة الخروج من دورة الحضارة.

فالكلمة لا تعيش وتؤتي ثمارها إلا في مناخ الحرية، ومناخ الحرية لا يتوافر إلا في مرحلة النهوض من السياق الحضاري، وتفقد الكلمة كل فاعليتها ومغزاها

عندما تفقد حريتها؛ فتنقلب معانيها إلى أضدادها. فإن هي فقدت حريتها في أمة آذنت شمس حضارتها بالأفول، وفي هذا السياق الحضاري نستطيع أن نتفهم صيحة عمر بن الخطاب إبان صعودنا الحضاري: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».



THE FREEDOM OF PUBLISHING
&
The Problem of Thought Observation

Ḥurrīyat al-Nashr
wa-Ishkālīyat al-Raqābah 'alá al-Fikr
Muḥammad 'Adnān Sālim

ما العلاقة بين النشر والرقابة؟

إلى أي مدى يمكن للمؤلف والناشر أن يتمتعا بالحرية في تقديم الفكر؟

من المسؤول عن الفكر؛ المؤلف أم الناشر أم السلطة؟

هل الرقابة الحقيقية تأتي من السلطة أم من المجتمع؟

وإلى أي مدى يصلح قانون الرقابة.. وإلى أي زمن؟

هل يحجر القرآن على حرية التعبير؟

نقاط عديدة يثيرها هذا الكتاب حول موضوع الرقابة وحرية النشر، في مقالات تعد جزءاً من تاريخ النشر.


ISBN 978-9933-10-248-7
9 789933 102487

Design | *Behzad Ali Issa*